الكتاب الأول

فجر مصر الإسلامية

أو

عصـر الـولاة

المدخل

الفتح العربى لمصر :

(أ) عمرو بن العاص، كيف فكر فى فتح مصر وكيف سار إليها ؟

(ب) حوادث الفتح .

(أ) عمرو بن العاص

كيف فكر فى فتح مصر وكيف سار إليها ؟

كان عمرو أحد القواد الذين يعملون لفتح الشام ، وقد اختص بفتح الجزء الجنوبى وهو فلسطين ، ولما تم للعرب فتح بيت المقدس أبى بطريقها (صفرونيوس) أن يسلم مفاتيح المدينة إلا للخليفة عمر نفسه ، فرحل عمر قاصدًا الشام فى بساطة العربى يتبادل الركوب وخادمه على ناقة واحدة .

ويقول بتلر[1] : ولعل عمرًا قد أفضى إلى عمر برأيه فى فتح مصر منذ كان فى بيت المقدس، ولكن الخليفة رأى أن وقت ذلك الفتح لم يحن بعد ، فلما ظهر العرب ، وانتهت الحرب أو كادت عاد عمرو إلى عرض رأيه .

وكان عمرو بن العاص – شأن سراة العرب جميعًا – يشتغل بالتجارة قبل ظهور الإسلام، ويتردد بها على بلاد الحبشة واليمن جنوبًا ، وبلاد الشام ومصر شمالاً، يقول الكندى :

(إن عمرو بن العاص كان يختلف بتجارته إلى مصر

وهى الأدم والعطر[2] .

وقد اختلط عمرو فى هذه البلاد بطبقات الناس المختلفة ، فالتاجر أكثر الناس اتصالاً ومعرفة بأخبار البلد التى يعمل فيها أو يرحل إليها .

درس عمرو أحوال هذه البلاد التى زارها ، وقارن بينها ، وأدرك بفطرته أن مصر ترجحها جميعًا . فهى أغنى بخيراتها ، وأرقى بفنها وصناعاتها ، ولكنه سمَع – ولا شك – من سكان مصر شكواهم التى تدل على كره شديد لحكم الرومان وظلمهم . ولعله لمس بنفسه بعض آيات هذا الظلم والاضطهاد ، وبعض علامات هذا الكره والمقت .

نشأ عمرو تاجرًا ، والتاجر يقدر دائمًا كل شىء قدره ، ويعرف لكل شىء قيمته ، فلا يقبل على أمر إلا إذا كان من ورائه ربح وفير ، هكذا نظر عمر للإسلام بعد الهجرة بسبع أو ثمانى سنوات هذه النظرة ، فلما تقدم يبايع النبى – عليه السلام – قال له :

(يا رسول الله – إنى أبايعك على أن يغفر لى ما مضى من ذنبى) .

هذا هو الثمن الذى يريده عمرو مقابل إسلامه ، وإنه لكثير ، ولكن الرسول الذى كان يريد أن يعتز الإسلام بشجاعة عمرو ودهائه أرضاه بقوله :

---

(١) بتلر : فتح العرب لمصر ، الترجمة العربية للأستاذ محمد فريد أبو حديد ، ص ١٧٢ .

(٢) الكندى . الولاة والقضاة ، ص ٧ .

(أسلم يا عمرو ، فإن الإسلام والهجرة يجبان ما كان قبلهما) .

وقد ولاه رسول الله بعد ذلك قيادة سرية ذات السلاسل ، وفيها أرسل يستمد الرسول ، فأمده بجند على قيادتهم أبو عبيدة بن الجراح، وأبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب ، وكانت الإمرة أثناء الحرب لعمرو بن العاص .

وقد ولاه الرسول بعد هذه السرية على عمان ، فأقام واليًا عليها حتى توفى النبى ﷺ، وبعد وفاته بنحو سنتين اختاره أبو بكر قائدًا مع القواد الذين سيرهم لفتح الشام - كما أسلفنا - فأبلى هناك بلاء حسنًا ، وتم له فتح فلسطين قبل أن يتم لأقرانه فتح سوريا ، فأرسل إليهم بعدد ليساعدهم .

ولما فتح بيت المقدس وجاء عمر فتسلم مفاتيحها بنفسه . قيل إنه أسر إليه هناك برغبته فى فتح مصر ، وأن عمر استمهله ليفكر فى الأمر .

فلما أتى عمر بعد ذلك إلى الجابية - وهى من قرى دمشق - خلا به عمرو مرة أخرى، واستأذنه فى فتح مصر ، ولكن عمر كان يخاف الله فى دماء المسلمين جميعا ، كان يخشى أن يراق دم مسلم واحد ظلمًا أو خطأ فيسأل عنه أمام ربه فى اليوم الآخر، كان عمر أحرص الناس على رعيته ، وكان يرى أن أمر العرب لم يستقر بعد فى الشام ، فكيف يستطيع أن يرسل جيشًا جديدا لفتح جديدًا فى مصر ؟؟ .

هكذا كان يفكر عمر ، ولكن عمرًا ما كان يعزم على أمر إلا بعد تفكير وتقدير واقتناع ، وإذا اقتنع ما كان يثنيه شىء عن رأيه ، فهو يقارع عمر الحجة ، ويقول له :

(إنها أكثر الأرض أموالاً)[1] .

ومع هذا لا يقتنع عمر بقوله ، فعمر لا يرى المال إلا عارية ، أما غرضه الأسمى فهو نشر الإسلام ، ثم هو يخشى ألا يستطيع العرب الغلبة على جيوش الرومان فى مصر ، فأنه يعتقد أنهم لابد قد اختصوا مصر بأقوى الجيوش وأكثرها عددًا وعدة لأهميتها بالنسبة للإمبراطورية ، ولكن عمر كان أعرف من عمر بمصر وقوتها فيرد عليه حجته ويقول :

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج١ ، ص ٥ ، ويقول الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٧ : (حتى فتح المسلمون الشام فخلا عمرو بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب فاستأذنه فى المضى إلى مصر ، وقال : إنى عالم بها وبطرقها ، وهى أقل شىء منعة وأكثر أموالاً ، فكره أمير المؤمنين الإقدام على من فيها من جموع الروم ، وجعل عمرو يهون أمرها ، وقد أمر أصحابه أن يتسللوا بالليل ثم اتبعهم ، فبعث إليه أمير المؤمنين : كن قريبًا منى حتى أستخير الله ، وذلك فى سنة تسع عشرة) .

(وهى أعجزها - أى أعجز الأرض - عن القتال والحرب)[1].

ومع هذا لا يقتنع عمر ، ولا يطمئن لقول عمرو وتحريضه ، فيضطر عمرو أن يفجأ خليفته بآخر حججه وأقواها التى تدفعه إلى التردد أولاً ثم الموافقة ثانيًا ، فيبين له أن العرب إن لم يلاحقوا الرومان فى مصر قبل أن يلموا شتاتهم بعد هزيمة الشام ، فإنهم لا شك جامعون جموعهم ومهاجمون الشام من صحراء العريش جنوبًا ، ومندفعون إليها من آسيا الصغرى شمالاً ، ومحاصروها بأساطيلهم من البحر ، وبهذا تضيع جهود المسلمين فى فتح الشام هباء ويسترد الرومان هذا القطر منهم ، والرومان أيضًا باحتفاظهم بمصر يستطيعون أن يستعينوا بثروتها - وهى بلد غنى - على تنفيذ هذا البرنامج الحربى ، وختم عمرو حديثه بقوله :

(إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونًا لهم)[2].

أمام هذه الحجج القوية وافق عمر على فتح مصر ، وعقد لعمرو على أربعة آلاف رجل كلهم من عك[3] ، وذلك فى أواخر سنة ٦٣٩هـ.

هذا هو الرأى الذى نميل إلى الأخذ به ، يمليه علينا التفكير السليم ومنطق الحوادث وطبيعة الرجلين عمر وعمرو ، وإن كانت هناك آراء أخرى لا بأس من أن نذكرها نقلاً عن البلاذرى .

١ - أول هذه الآراء أن عمرًا ، مضى إلى مصر من تلقاء نفسه فى ثلاثة آلاف وخمسمائة ، فغضب عمر لذلك وكتب إليه يوبخه ويعنفه على افتئاته عليه برأيه ، وأمره بالرجوع إلى موضعه إن وافاه كتابه دون مصر ، فورد الكتاب عليه وهو فى العريش)[4] .

٢ - وثانى هذه الآراء أن (عمر كتب إلى عمرو بن العاص يأمره بالشخوص إلى مصر ، فوافاه كتابه وهو محاصر قيسارية ، وكان الذى أتاه شريك بن عبدة ، فأعطاه ألف دينار ، فأبى شريك قبولها ، فسأله أن يستر ذلك ولا يخبر به عمر)[5] .

٣ - وثالثها ما ذكرناه أولاً - وهو الأرجح .

---

(١) انظر الصفحة السابقة ، هامش ١ .

(٢) انظر الصفحة السابقة ، هامش ١ .

(٣) يقول الكندى : الولاة والقضاة ص ٨ : (إن عمرو بن العاص قدم مصر بثلاثة آلاف وخمسمائة ، ثلثهم من غافق)

(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢١٦ ، ويروى الكندى : الولاة والقضاة ، ص ٧ - ٨ عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب أن عمرو بن العاص كان بفلسطين على ربع من أرباعها ، فتقدم أصحابه إلى مصر فكتب إلى عمر فيه وكان سار بغير إذن ، فكتب إليه عمر بن الخطاب بكتاب أتاه وهو أمام العريش فحبس الكتاب ولم يقرأه ، حتى بلغ العريش فقرأه فإذا فيه . من عمر بن الخطاب إلى العاص بن العاص ، أما بعد فإنه بلغنى أنك سرت ومن معك إلى مصر وبها جموع الروم ، وإنما معك نفر يسير .. فإذا جاءك كتابى هذا فإن لم تكن بلغت مصر فارجع) ، فقال عمرو : الحمد لله ، أية أرض هذه؟ قالوا : (من مصر) ، فتقدم إلى الفرما وبها جموع الروم فقاتلهم)

(٥) البلاذرى : فتوح البلدان ، ص ٢١٦ ، وانظر كذلك : المقريزى : الخطط ، ج ٢ ، ص ٦٣ .

لم يكد عمرو يحصل على موافقة عمر حتى أسرع بالمسير فخرج فى جوف الليل ، وترك عمر يفكر ويعيد التفكير ، وبينا هو كذلك إذ دخل عليه عثمان بن عفان - وهو من نعرف ورعًا وتؤدة - فسأل عمر ما به ، فأخبره بما كان من موافقته عمرو على المسير إلى مصر ، فأجاب عثمان فى الحال :

(يا أمير المؤمنين : إن عمرًا لمجرأ وفيه إقدام وحب للإمارة ، فأخشى أن يخرج فى غير ثقة ولا جماعة فيعرض المسلمين للهلكة رجاء فرصة لا يدرى تكون أم لا)[1].

وبهذا القول أصاب عثمان الهدف فى نفس عمر ، فأثار مخاوفه من جديد ، وكان هذا رأيه فى عمرو من قديم ، وإنه ليذكر أنه رأى عمر مرة يمشى فما تمالك أن قال لصحبه الذين حوله :

(ما ينبغى لأبى عبد الله أن يمشى على الأرض إلا أميرًا)[2].

وندم عمر على ما فعل ، ولكنه لا يدرى ماذا يفعل الآن وقد سار عمر بجيشه نحو مصر ، فسأل عثمان الرأى ، فقال عثمان :

- (فاكتب إليه : إن أدركك كتابى هذا قبل أن تدخل مصر فارجع إلى موضعك ، وإن كنت دخلت فامض لوجهك)[3].

وخرج الرسول يحمل خطاب عمر ، وأسرع يريد اللحاق بجيش عمرو ، واستشف عمرو ما فى الخطاب ، وأيقن أن عمر يستدعيه لأنه بذل جهدًا كبيرًا فى إقناعه . وخرج والشك يلعب بنفس عمر ، فاستمهل الرسول حتى يستريح ويزيل عنه آثار السفر، فلما وصل بجيشه إلى الوادى الصغير الذى عند العريش أخذ الكتاب وقرأه، ثم سأل من حوله - وهو أعلم منهم بأرض مصر وحدودها - :

«أنحن فى أرض مصر أم فى الشام؟..»

فقيل له : «نحن فى مصر».

فقرأ عليهم كتاب الخليفة، ثم قال :

«إذن نسير فى سبيلنا على بركة الله كما يأمرنا أمير المؤمنين»[4].

---

(١) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ٦ ، والمقريزى : الخطط ج ٢ ، ص ٦٤ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٦٣ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٧ .

(٤) انظر بتلر: فتح العرب لمصر، ص ١٧٤.

(ب) الفتح العربى لمصر

نستطيع أن نقسم حوادث الفتح العربى لمصر إلى أدوار ثلاثة.

١ – الدور الأول من بدء الفتح إلى وصول المدد.

٢ – الدور الثانى وينتهى بانتهاء موقعة عين شمس والاستيلاء على حصن بابليون.

٣ – الدور الثالث وينتهى بفتح الإسكندرية.

الدور الأول

وصل العرب إلى أرض مصر فى الشهر الأول من سنة ١٩ للهجرة (الشهر الأول من سنة ٦٤٠م)[1] وكانت العريش أول مدينة استولوا عليها. ثم غادروها، وسلكوا بعد ذلك الطريق التى تصل بين العريش والفرما، وهى طريق رملية بعيدة شيئًا ما عن البحر تتخللها عيون وقرى صغيرة، وقد سلكها منذ أقدم العصور كل وافد على مصر أو غاز لها من الشرق. فكانت طريق إبراهيم ويعقوب ويوسف، ثم شهدت مقدم قمبيز والإسكندر وأسرة المسيح – عليه السلام – وقبيل الفتح بسنوات قلائل شهدت هذه الطريق مقدم الفرس ثم عودتهم. وعبر هذا الطريق كذلك كان يمر الرحالة والتجار والحجاج من أفريقيا إلى آسيا فى رواحهم ومجيئهم.

ووصل عمرو بجنده القلائل إلى الفرما (بلوزيوم) شرقى بور سعيد الحالية، وقد كانت مدينة قوية ذات حصون، وكان لها مرفأ قريب على البحر، وإلى شرقها كان ينتهى الفرع البلوزى، أحد أفرع النيل القديمة، فيصب فى البحر، وهى إلى هذا كله كانت على رأس الطريق الصحراوى القديم المؤدى إلى مصر. ومع كل ذلك فإنها لم تكن منيعة فإن الفرس وقد كانوا مبرزين فى فنون الحصار لم يعانوا مشقة كبرى فى فتحها، ولعلهم دكوا أسوارها وخربوا حصونها كما خربوا كنائسها.

وكان من المنتظر أن يقدر الرومان لهذه المدينة أهميتها فيرمموا حصونها ويزودوها بقوة دفاع كبيرة لتقيم على مناوشة العرب أطول مدة ممكنة حتى يستطيعوا الاستعداد داخل مصر. غير أنه يبدو أن الرومان فوجئوا بالفتح العربى. أو أنهم لم يكونوا يقدرون أن هذه القوة الضئيلة ستستطيع أن تتقدم بالسرعة التى تقدم بها عمرو.

كانت المدينة ذات حصون كما ذكرنا. ولم تكن لدى العرب وقتذاك خبرة ما بدك الحصون أو تخريبها، كما لم تكن معهم الأسلحة التى تساعدهم على ذلك. ولم تكن لهم معرفة باستعمالها، فكان لابد لهم – للاستيلاء على المدينة أن يوالوا الهجوم على المدينة، أو يطيلوا

(١) أول عام سنة ١٩ هـ هو ٢ يناير سنة ٦٤٠م. وآخرها هو يوم ٢٠ ديسمبر ٦٤٠م

حصارها حتى ينال الجوع ممن فيها، وقد فضل عمرو الوسيلة الثانية، لأنه يريد فتحًا سريعًا يطمئن به قلب عمر، وقد ساعد على تحقيق أمنيته أن حامية المدينة كانت تتركها لتنازل العرب بين الحين والحين، فحدث مرة أن نزلت الحامية للقتال ثم كرت راجعة فسبقها العرب إلى الأبواب واقتحموها قبلهم، وهكذا استولى العرب على الفرما بعد حصار دام شهرًا واحدًا.

وأدرك عمرو بعد استيلائه على هذه المدينة ذات الموقع الممتاز والأهمية الكبيرة، وبعد الصدام الأول مع هذه الفئة القليلة من جند الروم أنه سوف لا يستطيع الاستيلاء على حصون مصر الأخرى وخاصة حصن بابليون إلا إذا وصلته إمداد جديدة من عمر، وهو يعلم أن الفرما تقع كما ذكرنا على رأس الطريق التى لابد أن يسلكها المدد عند مجيئة إلى مصر فلابد له إذن أن يترك بها حامية لحمايتها وحماية هذا الطريق.ولكن جنده كما نعلم قليل عديدهم، وهو فى أشد الحاجة لأن يزيد هذا الجند لا أن ينقصهم بترك طائفة منهم لحماية الفرما، ولعل عمرًا أيضًا قدر أنه فى حاجة لحماية هذه المدينة ليضمن طريق العودة إن قدر له أن يهزم فيرتد، وهو أيضًا فى حاجة إلى أن يسرع فى تقديمه ليفاجئ الروم قبل أن يستعدوا، لهذا كله قرر عمرو أن يهدم حصون المدينة وأسوارها ليخلص من هذا المشكل، ولكى لا يستفيد منها الروم إذا فكروا فى العودة إليها بعد مسيره.

ولنا أن نتساءل بعد ذلك لِمَ يقدر الروم هذه المدينة حق قدرها فيهتموا بالدفاع عنها وكان فى استطاعتهم - كما يقول بتلر - أن يرسلوا إليها عشرة آلاف جندى ليقضوا على قوة العرب الضئيلة ويؤخروا بذلك زمن الفتح العربى - ولا نقول يمنعوه - وقد كان فى مكنتهم هذا لأن الحصار دام شهرًا كاملاً، ولكنهم لم يرسلوا أى نجدة للمدينة وحاميتها، فكان قعودهم عن الفرما وإسلامهم لها كما يقول بتلر «أول ما ارتكبوه من خطل فى تلك الحرب»[1].

تقدم عمرو بعد ذلك جنوبًا ولم ينقص جيشه بل زاد بمن انضم إليه من بدو الصحراء حتى وصل إلى مدينة بلبيس حيث ظل يحاصرها شهرًا آخر،استطاع فى نهايته أن يدحر جيش الروم هناك، وأن يسير بعد هذا النصر قدما نحو نهر النيل.

وصل عمرو إلى قرية أم دنين وكانت مرفأ هامًا على النيل شمالى حصن بابليون، وموقعها الحالى فى قلب القاهرة عند المكان الذى تشغله حديقة الأزبكية وما يجاورها، عند ذلك أدرك تيودور قائد الجيش الرومانى - كما أدرك قيرس - خطورة الحال، فانحدرا إلى حصن بابليون ينظمان قوة الدفاع فيه، وكان من الممكن الاتصال عن طريق النيل بين هذا الحصن وبين حامية أم دنين، فكان من السهل على الجيش الرومانى أن ينزل فى أى وقت شاء للاقاة العرب ثم يعود فى يسر وسهولة بعد ذلك ليحتمى بأسوار الحصن، وقد فقد الجيش العربى كثيرًا من

---

(١) بتلر، ص ١٨٩.

أفراده أثناء هذه المناوشات وبدأت الكفتان تتكافآن، وأصبح مركز عمرو وجيشه حرجًا إن لم يتداركه عمر بالمدد، إذ لم يكن فى استطاعته البتة أن يفتح مدينة مصر وحصن بابليون الذى يحميها بمن معه من جند يقل عددهم يومًا بعد يوم، وهنا يقول بعض المؤرخين إن عمرا أرسل يستحث عمر لإرسال المدد، ثم أراد أن يشغل جنده بفتح آخر حتى يصل المدد، فعبر النيل وذهب ففتح إقليم الفيوم، وإن كان هذا الرأى مشكوكًا فيه، إذ كيف يخاطر عمرو فيعبر النيل بجنده ويسير جنوبًا ويعرض جيشه بذلك لهجوم الروم عليه من الشمال أو قطع الطريق بينه وبين المدد المنتظر.

ومهما يكن من أمر هذا الفتح فقد وصل المدد المنتظر[1] حوالى اليوم السادس من شهر يونيو، فأصبح جيش عمرو خمسة عشر ألفًا وستمائة جندى، فقوى بذلك بأسه وبدأ يستعد لموقعة عين شمس ولحصار حصن بابليون.

الدور الثانى

استقر عمرو بجيشه عند مدينة عين شمس، وجعل خطته أن يجتذب إليه جنود الرومان لينازلهم خارج الحصن، لأنه لم يكن للعرب كما ذكرنا خبرة بكيفية الاستيلاء على الحصون أو معرفة باستعمال الأسلحة التى تعينهم على ذلك.

وخرجت جيوش الروم رجالاً وفرسانًا وسلاحهم السيوف والرماح وعليهم عدة الدفاع من خوذ ودروع لملاقاة العرب فى السهل الواقع بين الحصن ومدينة عين شمس، وكانت العيون التى أرسلها عمرو من جيشه قد نقلت إليه عزم الرومان على القتال فى هذا السهل. فأعد لهم عمرو خطة حربية فذة قدر لها النجاح التام. فقد استقر بقلب جيشه عند عين شمس، وأرسل فى جنح الليل كمينًا من جنده استقر غربًا فى قرية أم دنين وكمينًا آخر اختبأ عند جبل المقطم[2]، ويقول بتلر: «ولعله كان فى ثنية الجبل بقرب الموضع الذى فيه اليوم قلعة الجبل، وأصدر عمرو أوامره إلى الكمينين أن ينقضا على جانبى الجيش الرومانى ومؤخرته فى الوقت المناسب».

وفى الصباح خرج جنود الرومان من الحصن وانتشروا فى السهل، ولم يفطنوا لخطة عمرو ومكيدته، لأنهم رأوه يتقدم بجنوده نحوهم من ناحية عين شمس (هليوبوليس)، والتقى

---

(١) يقول بتلر، ص ١٩٩: «وكان الأمير على المدد الزبير بن العوام ابن عمة النبى وصاحبه وأحد رجال الشورى الستة، وكان معه أربعة آلاف رجل، ثم جاء فى عقبه كتيبتان كل منهما أربعة آلاف رجل، فكان جميع من جاء من الإمداد اثنى عشر ألفًا».

(٢) كانت هذه الموقعة فى النصف الأول من شهر يوليو سنة ٦٤٠م.

الجيشان فى مكان وسط بين معسكريهما فى المكان المعروف باسم (العباسية) وبدأت المعركة، واشتد القتال وحمى وطيسه، فانقضت كتيبة الجبل - وعلى رأسها خارجة بن حذافة - على مؤخرة الرومان كما تنقض الصاعقة، وأعملت السيوف فى رقاب الرومان، فتولاهم الفزع وتملكهم الرعب، وانحدروا قليلاً جهة الغرب نحو قرية أم دنين، فخرجت إليهم الكتيبة الثانية، وأحاطت بهم، فاشتد بهم الذعر، وأيقنوا أنهم أحيطوا بالعرب من كل مكان، فتشتت شملهم. وقتل منهم العدد الأكبر، وفر من استطاع النجاة برًا إلى الحصن، ولجأ آخرون إلى القوارب النيلية فحملتهم إلى الحصن كذلك.

كان لهذه الهزيمة أثر سيء جدًا فى نفس الرومان، ولكن العرب أفادوا من نصرهم فائدة جليلة، فقد فتحت لهم هذه الموقعة الطريق إلى مدينة مصر، فاستولوا عليها ونقلوا إليها جيوشهم، فأصبحت معسكراتهم تشرف على الحصن مباشرة من جهتيه الشمالية والشرقية. وكان من أثر هذه الموقعة أيضًا أن فزع دومنتيانوس حاكم الفيوم، فتركها ليلاً دون حام يدافع عنها، وفر إلى نقيوس فى الشمال، فلما علم عمرو بفراره أرسل إليها فرقة من جنده فتحتها وضمتها لحكم المسلمين.

كان لعمرو بعد هذه الموقعة أن يختار أحد أمرين: أن يذهب بجيشه فيتتبع فلول الجيش الرومانى الذين فروا إلى الشمال ويتم وهو فى طريقه فتح الوجه البحرى، أو أن يقيم محاصرًا للحصن حتى يتم له فتحه، وقد فضل عمرو الأمر الثانى، وذلك لأن بلاد الوجه البحرى تفصل بينها فروع النيل وترعه ومجاريه المائية، وكان الوقت وقت فيضان والمياه تملأ هذه المجارى (نحو أوائل أغسطس سنة ٦٤٠م)، ثم إنه لو اتجه هذا الاتجاه لكان لزامًا عليه أن يشطر جيشه شطرين، شطر يبقى على حصار الحصن، وشطر يسير لفتح بلاد الوجه البحرى والإسكندرية، وعمرو يدرك أنه لا يستطيع أن يخلف وراءه عدوًا رابضًا فى الحصن، كما أنه لا يستطيع أن يفتح الإسكندرية بنصف جنده، لهذا فضل أن يرابط بجيشه كله حتى يستولى على الحصن، ثم يسير بجيشه كله لإتمام بقية الفتح، وهكذا فعل.

كان حصن بابليون قويًا منيعًا بأبراجه وأسواره، ويطل على النيل من ناحية الغرب. وكانت تقابله على الضفة الغربية جزيرة الروضة وهى منيعة أيضًا بأسوارها وحصونها، وكان الاتصال سهلاً دائمًا بين حامية الحصن وحامية الجزيرة وكانت مجانيق الرومان أفعل بالعرب مما كانوا يرمون به الحصن من حجارة وسهام ونبال.

غير أن الحالة المعنوية كانت فى جيش العرب على النقيض تمامًا مما كانت عليه الحالة المعنوية فى جيش الرومان، فبينما الجيش العربى يملأه الإيمان بعدالة فكرته، يندفع نحو القتال وهو يرجو الموت ليفوز بالجنة قبل أن يرجو الحياة فى النصر، وقد زادته سلسلة

الانتصارات المتتالية حماسًا فرق حماس وقوة إلى قوة إذا بجيش الرومان قد أثرت فيه سلسلة الهزائم، وبهرته قوة العرب واستبسالهم فى القتال، فانحلت قوى قواده قبل جنوده.

لهذا لم يمض على الحصار شهر حتى لعب اليأس بنفس المقوقس (قيرس)، فجمع من يثق بهم من رؤساء الحرس وأشرك معهم أسقف بابليون الملكانى (وذلك فى أوائل شهر أكتوبر سنة ٦٤٠م) وشرح لهم الموقف، وأفهمهم أن جيش العدو أصبح يفوق جيشهم عددا، وهو أقوى وأشجع وأكثر حماسًا، وأشد إقبالاً على القتال وإذا هم طلبوا المدد فإنه لا يصل إليهم قبل مضى شهر، ثم اقترح عليهم أن يفتدوا أنفسهم ومصر بمبلغ من المال يدفعونه إلى العرب ليتركوا مصر ويعودوا إلى بلادهم.

واستطاع قيرس أن يقنع أصحابه بحجته،ولكنه خشى أن يطلع جنود الحصن على رأيه وهم مصرون على القتال إلى النهاية، فاتفق مع صحبه أن يخرج من الحصن فى جنح الليل ويعبر إلى جزيرة الروضة حيث يستطيع أن يتصل بعمرو ويعرض عليه اقتراحه دون أن تعلم بذلك حامية الحصن.

وصل المقوقس إلى جزيرة الروضة، ومن هناك أرسل رسله ومن بينهم أسقف بابليون لمقابلة عمرو، فطلبوا منه أن يرسل إلى المقوقس بعض رجاله ليتفاهم الطرفان على إنهاء الحرب، ولم ينس رسل المقوقس أن يخيفوا عمرا ويحذروه من استمرار القتال، فذكروا له أن جيوش الروم كثيرة العدد ومزودة بالعدة والسلاح.

واحتجز عمرو الرسل يومين فى معسكره، وسمح لهم أن يتنقلوا بين جنوده، ثم بعث معهم برده وفيه يقول: ليس بنى وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال: إما إن دخلتم فى الإسلام فكنتم إخوانا وكان لكم مالنا، وإن أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون، وإما إن جاهدنا كم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وهو أحكم الحاكمين».

ثم أرسل عمرو بعد ذلك إلى المقوقس وفدًا من عشرة رجال على رأسهم عبادة بن الصامت. ودار بين الرجلين: المقوقس وعبادة نقاش طريف، عرض المقوقس خلاله على وفد العرب أن يصالحهم على أن يفرض لكل رجل منهم دينارين، ولأميرهم مائة دينار، ولخليفتهم ألف دينار على أن ينصرفوا إلى بلادهم، فسخر عبادة من هذا العرض، ورد عليه ردًا قويًا ختمه بقوله: فليس «بيننا وبينك خصلة نقبلها منك ولا نجيبك إليها إلا خصلة من ثلاث، فاختر أيها شئت ولا تطمع نفسك فى الباطل، بذلك أمرنى الأمير، وبها أمره أمير المؤمنين وهو عهد رسول الله ﷺ من قبل إلينا».

وخلاً المقوقس بأصحابه، وعرض عليهم الأمر، فوجد منهم إعراضًا شديدًا عن الموافقة على الخصلة الأولى، لأنهم يعتزون بدينهم ولا يرون أن يتركوه لغيره، وأما عن الخصلة الثانية فقد

كانت إجابتهم «إنا إذا أذعنا للمسلمين ودفعنا الجزية لم نعد أن نكون عبيدًا، وللموت خير من هذا».

وعلى هذا انفض الجمع وهم مصرون على القتال عازمون عليه، وإن كان هذا يخالف رأى المقوقس الذى كان يعتقد وقتذاك بأن النصر سيكون حتما فى جانب العرب، وأنه من الواجب أن يعقد معهم صلحًا مشرفًا حقنا للدماء وصيانة للأرواح، وخاصة أن عبادة قد ذكر له أنهم إن دفعوا الجزية كانوا آمنين على أنفسهم وأموالهم وذرياتهم، مسلطين فى بلادهم على ما فى أيديهم وما يتوارثونه فيما بينهم، وحفظت لهم كنائسهم، لا يتعرض لهم أحد فى أمور دينهم[1].

ويبدو أن كبار الروم قد طلبوا من العرب عندما اختلفت آراؤهم الهدنة لمدة شهر، ولكن عمرًا لم يوافق إلا على إمهالهم ثلاثة فقط، غير أنهم لم يلبثوا أن عادوا إلى الحصن، وانتشر بين الجند خبر المفاوضات ورغبة قيروس فى عقد الصلح، فأصر الجنود على القتال.

وانتهت الأيام الثلاثة، ولم يتلق عمرو ردًا، فبدأ فى اليوم الرابع يفكر فى خطته القادمة، وإذا بحامية الحصن تأخذ العرب على غرة وتهاجم دون إنذار، ولكن العرب لم تبغتهم هذه المفاجأة، فسارعوا إلى أسلحتهم، وإلى عدوهم فأشبعوه قتلاً حتى فر راجعًا إلى الحصن، وقوت هذه الهزيمة إيمان قيروس بأن العرب لا يمكن أن يهزموا، وأن النصر لابد مكتوب لهم، كما أضعفت هذه الهزيمة من عزيمة الفريق المعارض لقيروس، فخضعوا مرغمين لرأيه.

وبدأت مفاوضات الصلح تتجدد غير أن عمرًا أصر على شروطه، لم يغير فيها حرفًا واحدًا، فاختار الروم الأمر الثانى وهو الإذعان مع دفع الجزية، وكتبت شروط الصلح على أن ترسل لإمبراطور الرومان هرقل كى يوافق عليها، وأخذ قيروس على عاتقه أن يتولى هو إرسالها، واتفق الطرفان على أن تهدأ الحالة بينهما ويبقى الحصن فى يد الرومان حتى يصل الرد من هرقل.

أسرع المقوقس فغادر الحصن إلى الإسكندرية، ومن هناك أرسل شروط الصلح إلى إمبراطوره، وأصحبها رسالة يبرر فيها موقفه ويعتذر لسيده لاضطراره إلى عقد الصلح، ويبين له أن العرب قوة لا يمكن أن تهزم، وأنه رأى بتصرفه هذا أن يحقن الدماء ويحمى مصر من الخراب؛ ويحلل بتلر فى الكلمات الآتية شعور هرقل عندما وصلته هذه الرسالة تحليلاً جميلاً فيقول:

«وليس بعجيب أن يكون هرقل قد حار فى أمر تلك الكتب التى جاءته من المقوقس، فإنها لا تبين إذا كان الصلح خاصًا بحصن بابليون أو إنه كان صلحًا على ترك بلاد مصر جميعها حتى الإسكندرية للعرب، ولا تبين هل يبقى العرب فى البلاد بعد أخذ الجزية أو يرحلون

(١) بتلر، ص ٢٢٦ – ٢٢٧.

عنها، فهل كان معنى ذلك الصلح نزع مصر من دولة الروم وإسلامها لأعداء المسيحية، لقد كان الإمبراطور منذ شهور يلوم قواده ولاسيما قيروس خليفته على مصر لأنهم فرطوا فى الأمر حتى استطاعت فئة قليلة من العرب أن ترفع ألويتها فى مصر وتغلب جيوش الدولة وتتحداها، فإذا به وقد بعث إليه بصلح ليس يدرى هل معناه رشوة العدو بمال يأخذه على أن يخرج عن تلك البلاد أم معناه إسلامها فيبقى ذلك العدو سيد الأرض يجبى له خراجها ويتنعم بقمحها وبخيراتها، عجب الإمبراطور ولم يدر ما الذى أدى إلى ذلك الإذعان، وعزم على أن يدعو (قيروس) المقوقس ليحاسبه على ما كان منه فى مصر»..

وأرسل هرقل رسالة إلى قيروس يستدعيه إليه، وكان لقاء عجيب بين الرجلين: فالإمبراطور يلوم عامله على مصر ويؤنبه على تهاونه وتقصيره حتى استطاع العرب — رغم قلة عديدهم — أن يوطدوا أقدامهم فى مصر، وقيروس ينتحل الأعذار ويبرر فعلته بما كان من ضعف الروم واستبسال العرب وتفانيهم فى القتال، غير أن هذه الأعذار لم تشفع له لدى سيده الذى رماه — وهو يتقد غضبًا وغيظًا — بالإجرام والخيانة والجبن، ثم أشبعه تقريعًا وتعنيفًا وأرسله إلى والى القسطنطينية فشهره وأهانه، وانتهى به الأمر إلى النفى.

وكان معنى هذه الحملة من هرقل أنه رافض لشروط الصلح، ووصلت أخبار هذا الرفض إلى مصر مع نهاية عام ٦٤٠م فانتهت بذلك الهدنة، واستؤنف القتال، وكانت المياه قد غاضت من الخنادق المحيطة بالحصن، فاستعاض عنها الرومان بحسك الحديد وألقوه فى قيعان هذه الخنادق.

واستمر حصار العرب للحصن طول فصل الشتاء وهم يناوشون الروم ليلاً ونهارًا، ويقال إن جماعة من جند الروم الذين كانوا بالفيوم — وكانوا أكثر معرفة بفن مهاجمة الحصون — قد انضموا للعرب أثناء الحصار فكانوا يعبرون النيل فى سفنهم ليلاً فينهبون جزيرة الروضة أو يسلبون سفن الروم العابرة بين الجزيرة والحصن، ثم فتكت الأمراض بالجنود داخل الحصن وتناقص عددهم، وظلوا يترقبون وصول المدد من بلاد الروم، ولكن جنديًا واحدًا لم يصلهم، وإنما وصلتهم أنباء تنذر بالشر ولا تبشر بالخير، فقد علموا بالغضب الذى استحوذ على هرقل، كما وصلهم ما أصاب المقوقس من تعذيب وتعنيف وتشهير ونفى، ثم ألقى إليهم أخيرًا ما كان من رفض الإمبراطور للصلح.

وفى أوائل شهر مارس سنة ٦٤١م حملت إليهم الريح أصوات جند العدو جميعا تقصف كالرعد مهللة مكبرة، وتساءلوا فعلموا أن إمبراطورهم الشيخ الباسل قد مات، ففت ذلك الخبر فى عضدهم، وقضى على البقية الباقية فى نفوسهم من أمل، ومع ذلك فقد ظل الحصن شرًا بعد ذلك يبذل الجهد الأخير ولا يسلم، فلما أبطأ الفتح قيل إن الزبير بن العوام وهب نفسه لله ووضع خطة جريئة لفتح الحصن تتفق وروحه وشجاعته، وكان العرب قد تمكنوا — رغم دفاع

حامية الحصن – من طم جزء من الخندق، وفى جنح الليل تقدم الزبير فوضع سلمًا على السور، ويرجح أنه اختار الناحية الجنوبية الغربية منه[1] وصعد عليه، فلم يشعر الروم إلا والزبير على رأس الحصن يكبر وسيفه فى يده، فاندفعوا يسعون لصده ورده، غير أن العرب طاردوهم بسهامهم التى أرسلت كالمطر المنهمر خارج الحصن إلى داخله، وتسارع أيضًا أنصار الزبير إلى السلم، واعتلوا السور إلى جانبه، غير أنه يبدو أن الروم كانوا يتوقعون هجوم العرب من هذه الناحية، فأقاموا هناك حائطًا تعترض المشى فوق السور من جانبى ذلك الموضع.

وكان من الممكن لو صمد الروم وثبتوا قليلاً أن يردوا العرب الذين تسلقوا عليهم الحصن ويفنوهم قتلاً بسهامهم، غير أن خطة الزبير الجريئة كانت قد قضت على آخر شعاع من حماس، أو رغبة فى الدفاع، أو قوة على النضال عند الروم، فلم تكد الشمس تشرق حتى أرسل جورج قائد الحصن يعرض الصلح على عمرو بعد حصار دام سبعة أشهر، ويقال إن الزبير عارض فى أمر هذا الصلح وقال لعمرو: «إنك لو انتظرت قليلاً لفتحنا الحصن عنوة»، غير أن عمرًا لم يستمع له، وأجاب دعوة قائد الحصن فى الحال، وكتب عهد الصلح بين الفريقين، وأهم شروطه:

١ – أن يخرج الجند من الحصن فى مدى ثلاثة أيام.

٢ – أن يرحلوا عن طريق النهر ويحملوا معهم من القوت ما يكفيهم لبضعة أيام.

٣ – أن يستولى العرب على الحصن وجميع ما فيه من ذخائر وآلات الحرب.

وكانت هذه الحملة الأخيرة على الحصن يوم الجمعة السادس من أبريل سنة ٦٤١م، وبعد ثلاثة أيام، أى فى يوم عيد الفصح من تلك السنة، كان رحيل الروم عن الحصن وعن جزيرة الروضة متجهين شمالا إلى العاصمة آخر معقل لهم فى مصر.

الدور الثالث

اتخذ عمرو بجيشه بعد ذلك الطريق إلى الإسكندرية، واستطاع أن يتغلب على المدن الحصينة التى قابلته، وأهمها: طرنوط – أو الطرانة كما يسميها العرب – ونقيوس، وسلطيس، وكريون وكانت آخر حصن فى الطريق إلى الإسكندرية، فلما افتتحها العرب خلالهم هذا الطريق، وأشرفوا على المدينة الحصينة، وحل موسم الفيضان من جديد، وكان الأسطول البيزنطى يحمى المدينة ويزودها بالمؤن والسلاح، فرأى عمرو أنه من العبث أن يستطيع العرب التغلب على حصونها وأسوارها، فترك قوة مسلحة ترابط جنوب المدينة، وخرج بفرق من جيشه لإخضاع بعض مدن مصر السفلى، ثم عاد إلى بابليون وخرج منها إلى الصعيد، فأكمل فتح الجزء الأكبر من مصر الوسطى.

---

(١) انظر: بتلر، ص ٢٣٦، هامش ٣.

وكانت الأمور فى القسطنطينية تسير بعد موت هرقل من سيء إلى أسوأ، فقد تولى الحكم من بعده ولداه قسطنطين وهرقل الثانى تساعدهما الإمبراطورة التى استدعت قيروس من المنفى وأعادته إلى مصر مزودًا بالسلطة التامة لعقد الصلح مع العرب، وقد وصل قيروس بأسطوله إلى الإسكندرية، ثم غادرها إلى بابليون حيث عقد مع عمرو بن العاص الصلح الأخير، ويسميه بتلر صلح الإسكندرية، لأنه خاص فى جملته بأهالى الإسكندرية، وتمييزًا له عن صلح بابليون الذى عقده جورج عند تسليم الحصن، وأهم شروط الصلح الأخير:

١ - أن يدفع الجزية كل من دخل فى العقد.

٢ أن تعقد هدنة لنحو أحد عشر شهرًا يجلو الروم خلالها عن مصر ويبحرون إلى بلادهم.

٣ - أن يبقى العرب فى مواضعهم أثناء هذه الهدنة على أن يعتزلوا وحدهم ولا يسعوا أى سعى لقتال الإسكندرية، وأن يكف الروم كذلك عن القتال.

٤ - أن ترحل مسلحة الإسكندرية فى البحر ويحمل جنودها معهم متاعهم وأموالهم جميعها، على أن من أراد الرحيل عن طريق البر فله أن يفعل على أن يدفع كل شهر جزءًا معلومًا ما بقى فى أرض مصر أثناء رحلته.

٥ - أن لا يعود جيش الروم إلى مصر أو يسعى لردها.

٦ - أن يعد العرب بعدم التعرض لكنائس المسيحيين أو لشئونهم الدينية.

٧ - أن يسمح لليهود بالإقامة فى الإسكندرية.

٨ - أن يبعث الروم مائة وخمسين من جنودهم وخمسين من غير الجند رهائن لتكون ضمانًا لتنفيذ شروط هذه المساعدة.

وقد أمضيت هذه المعاهدة فى أوائل شهر نوفمبر سنة ٦٤١م، وأبحرت الجنود الرومانية إلى بلادها فى ١٧ سبتمبر سنة ٦٤٢م (٢١ هـ).

الباب الأول

مدينة الفسطاط ، تأسيسها ونموها

الفصل الأول : الفسطاط ، كيف اختير مكانها ولم سميت بهذا الاسم ؟

الفصل الثانى : مدينة الفسطاط من الناحية العمرانية :

(أ) تخطيط المدينة .

(ب) نمو المدينة شرقا وغربا :

١ - النمو شرقا : العسكر ، القطائع ، القاهرة .

٢ - النمو غربا : جزيرة الروضة ، الجيزة .

(جـ) نمو المدينة ذاتها .

الفصل الأول

مدينة الفسطاط – تأسيسها ونموها

كيف اختير مكانها ؟ ولم سميت بهذا الاسم ؟

يستطيع القارئ لأخبار الفتح العربى لمصر أن يلمح فى يسر ووضوح أن الحرب لم تكن قائمة إلا بين العرب والروم ، وأن القبط قد وقفوا من الجيشين موقف المحايد ، وإن كانوا فى سرائرهم يتمنون النصر للعرب ، لما سمعوه عنهم من حسن السياسة وطيب المعاملة ، ولهذا استمر الروم يدافعون عن مصر وراء حصن نابليون سبعة أشهر طوالاً ، والعرب يستمدون من الحماسة الدينية والإيمان قوة لا تأبه للعقبات وصبرًا لا يعرف الملل .

ولما سقط هذا الحصن فى أيدى العرب زالت من طريقهم أكبر عقبة من عقبات الفتح ، وتراجع الروم إلى الإسكندرية ، فتبعهم المسلمون وحاربوهم حتى استولوا عليها ، وبسقوط العاصمة الرومانية فى أكتوبر سنة ٦٤١م تم فتح العرب لمصر ، فانتشروا فى ربوعها حتى وصلوا إلى الشلال الأول ، وبذلك أصبحت مصر ولاية من ولايات الخلافة الإسلامية .

عمرو يريد أن يتخذ لمصر عاصمة :

روى أن ابن عبد الحكم عن يزيد بن أبى حبيب أن عمرو بن العاص لما فتح الإسكندرية ورأى بيوتها وبناءها مفروغًا منها هم أن يسكنها وقال : (مساكن قد كفيناها) ، فكتب إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يستأذنه فى ذلك ، فسأل عمر الرسول :

(هل يحول بينى وبين المسلمين ماء ؟) .

قال : (نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل) .

فكتب عمر إلى عمرو : (إنى لا أحب أن ينزل المسلمون منزلاً يحول الماء بينى وبينهم فيه شتاء ولا صيفا ، فتحول عمرو بن العاص من الإسكندرية إلى الفسطاط[1] .

قد تبعث هذه الرواية على التساؤل : لم كان عمر يخشى الماء ؟ يقول بعض المؤرخين إن العرب لم تكن أمة بحرية ، وبذلك أبى بعد النظر على عمر أن يلقى بجنود المسلمين فى مكان يفصل بينه وبين المدينة ماء حتى لا يكون هذا الماء إذا حزبهم الأمر حائلاً بينهم وبين الوصول إلى مركز قوتهم ، وإذا أراد الخليفة أن يبعث إلى جنده بمصر مددًا لم يكن هناك ماء يعترض سبيل هذا المدد ويمنع وصولهم .

---

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ، القاهرة ١٣٢٧هـ ، ج ١ ، ص ٥٧ .

وقد ذكر السيوطى فى (حسن المحاضرة) أن ابن عبد الحكم قد أخرج عن يزيد بن أبى حبيب أيضًا أن عمر بن الخطاب كتب إلى سعد بن أبى وقاص - وهو نازل بمدائن كسرى-، وإلى عامله بالبصرة ، وإلى عمرو بن العاص وهو نازل بالإسكندرية : (أن لا تجعلوا بينى وبينكم ماء ، متى أردت أن أركب إليكم راحلتى حتى أقدم عليكم قدمت) . فتحول سعد من مدائن كسرى إلى الكوفة ، وتحول صاحب البصرة من المكان الذى كان فيه فنزل البصرة[1]، وتحول عمرو بن العاص من الإسكندرية إلى الفسطاط)[2] .

من هذا نرى أن رغبة عمر فى أن لا يحول بين المسلمين وبينه ماء لم تكن مقصورة على مصر بل كان يريدها أن تتوافر فى كل الأمصار التى فتحها العرب .

ويقول فريق آخر من المؤرخين ومنهم المستشرق الإنجليزى St.Lane-poole فى كتابه : The Story of Cairo إن عمر لم يكن قد رسم خطة ثابتة لتكوين إمبراطورية إسلامية واسعة، ولذلك كان يريد أن يكون على اتصال دائم بجيوشه التى خرجت للفتح ، وإذ كان الطريق بين العرب والإسكندرية قابلاً للانقطاع فى زمن الفيضان فينقطع بذلك سبيل الاتصال بينها وبين المدينة عاصمة الخلافة ، فقد كتب عمر إلى عمرو يأمره أن يتخذ له حاضرة أخرى غير الإسكندرية .

ويبدو عند مقارنة هذين الرأيين . أحدهما بالآخر - أنه ليس للرأى الثانى من القوة والصحة قدر ما للرأى الأول ، وذلك لأن النشاط الذى أبداه عمر منذ ولى الخلافة ، وإرساله الجيوش تلو الجيوش إلى الشام وفارس ومصر ، كل هذا يثبت بالبرهان القاطع أن المستشرق الإنجليزى لين بول إنما قال ما قال من باب التعليل والاستنتاج العقلى فحسب .

لهذا أعرض عمرو عن الإسكندرية وولى وجهه شطر الفسطاط .

---

(١) فى عهد عمر بن الخطاب فتح المسلمون العراق ، (وهناك على شط العرب اختط الأمير عتبة بن غزوان مدينة البصرة وجامعها ودار إمارة بجواره حوالى سنة ١٤هـ (٦٣٥م) ، فكانت أول مدينة أسسها المسلمون ، وبعد ذلك وعقب معركة القادسية أسس الأمير سعد بن أبى وقاص مدينة الكوفة سنة ١٦هـ - ١٧هـ (٦٢٦م-٦٣٧م) ، وأنشأ بها مسجدًا جامعًا ودارًا للإمارة أيضًا ، فلما فتح الأمير عمرو بن العاص مصر اقتدى بالأميرين السابقين فاختط الفسطاط ، وأنشأ بها فى سنة ٢١هـ (٦٤١م-٦٤٢م) جامعة المعروف) انظر : محمود أحمد : جامع عمرو بن العاص ، القاهرة ، ١٩٣٠ ، ص ١ : واليعقوبى : كتاب البلدان ، ليدن ١٨٩١م ، ص ٣٢٣ .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ، نفس الجزء والصفحة ، وانظر أيضًا ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج١، ص ٨٥ حيث يقول : (وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه منع المسلمين من الغزو فى البحر شفقة عليهم) .

ولنا أن نتساءل مرة أخرى . لم اختار عمرو هذا المكان دون غيره لبناء مدينة الفسطاط ؟

وهنا تتشعب الآراء وتتعدد ، ولكنها برغم تشعبها وتعددها لا تصل إلى رأى حاسم معقول، فغالبية المؤرخين المصريين كابن عبد الحكم ، وابن دقماق ، والمقريزى ، وأبى المحاسن، والسيوطى وغيرهم يروون حادث اليمامة على أنه السبب الأساسى لاختيار عمرو لهذا المكان ، ونزوله وجيشه بين ربوعه ، وغالبية المؤرخين الفرنجة كبتلر ، ولين بول ، وكازانوفا وغيرهم لا يهتمون بمناقشة الأسباب التى دعت لاختيار هذا المكان دون غيره ما يهتمون بمناقشة الآراء المختلفة فى سبب تسمية هذه الحاضرة بالفسطاط .

ورغم أنهم يستطرفون قصة اليمامة فإنهم يرجعون هذا الاسم إلى الكلمة الإغريقية Fossatum (أى المدينة) ، ويقولون بأن العرب نقلوها عن الروم الشرقيين عند اتصالهم بهم فى حروب الشام .

غير أننا نحب أن نعنى بالأمرين جميعًا لما لكل من الأهمية ، ولذا سنحاول :

أولاً : مناقشة الأسباب التى دعت لاختيار هذا المكان ليكون حاضرة الديار المصرية بعد إتمام الفتح العربى .

ثانيًا : مناقشة الأسباب التى دعت لتسمية هذا المكان بالفسطاط .

١ - أسباب اختيار هذا المكان :

أما عن الأمر الأول فيقول المقريزى فى خططه : (أعلم أن موضع الفسطاط الذى يقال له اليوم مدينة مصر كان فضاء ومزارع فيما بين النيل والجبل الشرقى الذى يعرف بجبل المقطم ، وليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن يعرف اليوم بعضه بقصر الشمع وبالمعلقة، ينزل به شحنة المتولى على مصر من قبل القياصرة ملوك الروم عند سيره من مدينة الإسكندرية ، يقيم فيه ما يشاء ثم يعود إلى دار الإمارة)[1] .

من هذا يبدو أن العرب قد أنشأوا مدينتهم (الفسطاط) فى الفضاء المجاور لحصن بابليون - مقر الدفاع الرومانى - ، وهنا نجد اختلافًا آخر بين المؤرخين بشأن كلمة (بابليون) . فالبعض يطلقها على الحصن فحسب ، والبعض الآخر يقول بوجود مدينة حول الحصن كانت تسمى بهذا الاسم ، وزعيم الفريق الثانى هو الدكتور بتلر ، وقد لخص رأيه فى هذه الفقرة .

---

(١) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٥٩ ، مطبعة النيل بالقاهرة سنة ١٣٢٤هـ .

١ - كانت تقوم فى زمن الفراعنة مكان مصر القديمة (الفسطاط) مدينة ذات شأن يدل عليها وجود بعض التماثيل المصرية ، مثل (سرية أبى الهول) وأن بعضًا من هذه التماثيل بقى حتى زمن الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى[١] .

٢ - وفى القرن السادس قبل الميلاد اتخذ البابليون لهم فى هذا المكان معسكرًا حربيًا وأنشأوا هناك حصنًا على المرتفعات الصخرية التى سماها العرب فيما بعد (الرصد) .

٣ - ومن هذا المعسكر انتشر اسم (بابليون) حتى شمل الإقليم المجاور وأصبح الاسم المميز لمدينة عظيمة تمتد بعيدًا شمال الرصد حتى تتصل بأطراف المدينة القديمة العظيمة المنحلة وقتذاك : (هليوبوليس أو عين شمس) .

٤ - وعندما أراد تراجان أن يعزز قوته عند رأس الدلتا ، واعتزم أن يبنى حصنًا قويًا كقلعة لبابليون ترك حصن الفرس القائم على الرصد وأنشأ قلعته على شاطىء النيل ، وذلك ليضمن وجود الماء بالقرب من حاميته ، ولتستطيع تلك الحامية الاتصال - بوساطة النيل - بسائر جهات القطر المصرى ، وسمى هذا الحصن بحصن بابليون (أى حصن مدينة بابليون) أو قلعة مصر - Castle of Khemi ، وقد حرف العرب هذا الاسم فيما بعد فسموه قصر الشمع .

٥ - وبذلك هجر حصن الرصد الفارسى واستولت عليه عوامل الانحلال والنسيان ، حتى إذا كان الفتح العربى بعد ذلك بخمسة قرون ونصف كانت الأخبار على وجوده عامة لا تكاد تذكر.

٦ - أن اسم بابليون الذى وجده العرب عند قدومهم يطل على مدينة مصر قد تلاشى بمرور الزمن ، وحل مكانه الاسم العربى الجديد (الفسطاط) ، حتى إذا ابتدأ مؤرخو العرب يدونون كتبهم كان اسم (بابليون) قد أصبح يطلق على قصر الشمع فحسب بعد أن انتزع من المدينة التى أصبحت بعد اتساعها ونموها تسمى بالفسطاط .

٧ ولكن هذا الاستعمال المحدود للاسم ابتدأ كذلك يتلاشى فى مصر فى الأزمنة الحديثة ، وغادر الاسم الأنقاض الباقية من قصر الشمع ، وتضاءل حتى غدًا يطلق على دير قبطى صغير

---

(١) يذكر ابن دقماق فى كتاب (الانتصار لواسطة عقد الأمصار) ، جـ ٤ ، ص ٢١ - ٢٢ بولاق ١٣٠٩هـ ، عند كلامه عن الأزقة التى كانت بالفسطاط (زقاق الصنم) ، ويقول إنه سمى بهذا الاسم لوجود صنم به كان يسمى (سرية أبى الهول) ، وقد هدمه الأمير بلاط سنة ٧١١هـ ، فى سلطنة الناصر محمد بن قلاوون (انظر أيضا : المقريزى، الخطط، جـ ٣ ، ص ٢٨٨)، ويتفق مع هذا أيضا ما رواه ابن الفقيه فى كتابه البلدان ، ص ٦٠ عن وجود تمثال من الحجر لامرأة كان بالفسطاط ، وما رواه المقدسى فى كتابه (أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم) ص ٢١١ ، ليدن، سنة ١٨٧٧م ، إذ يقول : (وفى الفسطاط عند قصر الشمع امرأة ممسوخة على رأسها سفرة من حجر.. إلخ)، هذا وقد عثر فى السنوات الأخيرة على قطع من الحجر فى حفائر الفسطاط مكتوب عليها بالخط الهيروغليفى وقد نقلت إلى دار الآثار المصرية .

يقع عند البوابة الجنوبية من الحصن ويسمى (دير بابليون) ، وعند ذلك الدير الصغير استقر ذلك الاسم التاريخى القديم بعد أن خلفه فى تسمية المدينة (لفظ الفسطاط) ، وبعد أن خلفه فى تسمية الحصن لفظ (قصر الشمع)[1] .

ونحن لا يهمنا من هذا التحليل كله لتطور استعمال كلمة بابليون إلا أن نعرف أن المكان الذى أنشأت عليه الفسطاط كانت تشغله منذ أيام الفراعنة مدينة كبيرة ذات شأن اتخذها البابليون مكانًا لاستقرارهم ، ثم اتخذها الرومان مقرًا لدفاعهم يصلون به الوجهين البحرى القبلى ، ويدفعون منه كل مغير على مصر .

وهذا ما يؤيد الرأى الذى نريد أن نذهب إليه من أنه كان فى مصر وقت الفتح مدينتان هامتان: إحداهما الإسكندرية، وتعتبر العاصمة الأولى وذلك لقربها من الدولة الرومانية الشرقية صاحبة السيادة وقتذاك ، ولإشرافها على البحر الأبيض المتوسط ؛ وبابليون أو (مصر) وتعتبر العاصمة الثانية ، وذلك لموضعها من رأس الدلتا بحيث تشرف على الوجهين القبلى والبحرى، ولوقعها على شاطئ النيل بحيث تكون سهلة الاتصال - بوساطة هذا النهر - بكل أطراف القطر المصرى، ولتوسطها بين النيل غربًا (وهو مورد من الماء لا ينفد) وبين جبل المقطم شرقًا - وهو حد طبيعى لحمايتها - ولهذا نلاحظ أن المصريين منذ القدم كانوا يختارون هذا المكان مقرًا لحكمهم للأسباب المتقدم ذكرها[2] ، فاتخذوا منف عاصمة لهم مدة ليست بالقليلة، وكانت هليوبوليس (عين شمس)[3] كذلك حاضرة لمصر مدة طويلة[4] ، وبابليون كما ترى تقع بين المدينتين[5]، يقول ابن حوقل فى كتابه (المسالك والممالك) : (عين شمس ومنف قريتان قد خربتا، كانتا منتزها لفرعون .. عين شمس عن شمال الفسطاط، ومنف عن جنوبه) .

ويؤيد هذا الرأى القائل بوجود هذه المدينة أيضًا قول المقريزى : (وكان بجوار هذا الحصن (بابليون) من بحريه وهى الجهة الشمالية أشجار وكروم وصار موضعها الجامع العتيق ، وفيما بين الحصن والجبل عدة كنائس وديارات للنصارى فى الموضع الذى يعرف اليوم براشدة ، وبجانب الحصن فيما بين الكروم التى بجانبه وبين الجرف الذى يعرف اليوم بجبل يشكر

---

(١) Butler : Babylon of Egypt. Oxford, 1914, p. 62-63.

(٢) يقارن هذا بما ذكره ابن خلدون فى مقدمته ، ص ١٩٠ - ١٩١ ، القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ ، عما تجب مراعاته فى أوضاع المدن .

(٣) يقول ابن دقماق ، جـ ٤ ، ص ٣ ، نقلاً عن ابن سعيد : (كانت مبانيها (أى مبانى مصر) فى قديم الزمان متصلة بمبانى عين شمس) .

(٤) وقد بنيت العواصم المصرية الأخرى كلها شمال هذا المكان (العسكر سنة ١٣٣هـ ، والقطائع سنة ٢٥٦هـ ، والقاهرة سنة ٣٥٨هـ) .

(٥) يعين ابن الفقيه فى كتابه (مختصر البلدان) موقع الفسطاط (بابليون) بالنسبة للمدينتين القديمتين فى قوله : (وعين شمس على ٣ فراسخ من الفسطاط ومنف مساكن بينها وبين عين شمس ٣ فراسخ) .

حيث جامع ابن طولون والكبش عدة كنائس وديارات للنصارى فى الموضع الذى كان فى أوائل الإسلام بالحمراء)[1] .

وقول ابن سعيد فى كتابه المغرب :

(وأما فسطاط مصر فإن مبانيها كانت فى القديم متصلة بمبانى عين شمس . وجاء الإسلام وبها يعرف بالقصر حوله مساكن)[2] .

ونحن نعرف أن المعابد عامة - من هياكل وبيع وكنائس ومساجد . منذ أقدم العصور إلى اليوم - لا تبنى إلا فى المدن أو الأماكن الآهلة بالسكان . فوجود هذه الكنائس والديارات فى الأماكن التى يذكرها المقريزى تثبت إثباتًا قاطعًا وجود مساكن آهلة ومبان عامرة فى هذه المدينة القديمة وقت الفتح . وقول ابن سعيد لا يحتاج إلى هذا الاستنتاج ، إذ يقول فى عبارة واضحة لا لبس فيها ولا إبهام : (وجاء الإسلام وبها بناء يعرف بالقصر حوله مساكن) .

من هذا نرى أن اختيار عمرو لهذا المكان لم يقع اعتباطًا ، بل كان اختيارًا طبيعيًا . كان عمرو يريد أن يتخذ له حاضرة يستقر فيها ، غير أنه ما كان يريد أن يبذل جهدًا فى إنشاء هذه الحاضرة بدليل رغبته فى اتخاذ الإسكندرية حاضرة ، وبدليل تعبيره عن هذه الرغبة بقوله : (مساكن قد كفيناها)[3] ولكن عمر قد أمره أن يتحول عن الإسكندرية ، فكان لزامًا على عمرو أن يحول وجهه شطر العاصمة الثانية وقتذاك وهى (بابليون) أو (مصر) ، فذهب إليها ، واتخذ الفضاء المجاور لها مقرًا له ولجنوده .

هذه هى الأسباب الطبيعية التى دعت عمرًا لاختيار هذا المكان ، غفل عن ذكرها مؤرخو العرب ، ولم يعرها اهتمامًا مؤرخو الفرنج .

٢ - لم سميت المدينة بهذا الاسم ؟ :

أما عن الأمر الثانى وهو الأسباب التى دعت لتسمية هذا المكان بالفسطاط فإن الآراء فيها وإن اختلفت وتشعبت فإنها كذلك لا تصل بنا إلى حل حاسم معقول .

أما مؤرخو العرب فيعتمدون جميعًا على قصة اليمامة ، وأما مؤرخو الفرنجة فتقول غالبيتهم بأن كلمة الفسطاط قد أخذت عن الكلمة الإغريقية Fossatum أى المدينة ، وأن العرب نقلوها عن اليونان عند اتصالهم بهم فى حروب الشام:

---

(١) المقريزى : المرجع السابق ، ص ٦٠ .

(٢) نفس المرجع ، ص ٦٢ .

(٣) المقريزى : المرجع السابق ، ص ٧٥ - ٧٦ .

غير أنا نرى أن قصة اليمامة مع طرافتها قد تبعد عن الصحة، وذلك لأنهم يقولون إن عمرًا قد أوصى أحد المصريين - فى رواية - أو صاحب القصر - فى رواية أخرى - بالمحافظة على الخيمة «الفسطاط» حتى تفرخ اليمامة وتطير صغارها، وأنه عند رجوعه وجد الفسطاط فى مكانه، فنزل هو وجنده بجواره، ونحن نشك فى صحة هذا الخبر لأن عمرًا ولو أنه كان قد استولى على حصن بابليون فإن مصر لم تكن قد خضعت كلها لأمره، ولذلك لا يعقل أن ذلك الرجل المكلف بالمحافظة على الفسطاط يبقى على عهده ويحافظ على وعده مع رجل فاتح لم يثق بعد أنه أصبح الحاكم على مصر حتى يخشاه ويحافظ على حراسة فسطاطه من أجل يمامة طول ذلك الوقت الذى استنفده عمرو فى فتح الإسكندرية وما بين بابليون والإسكندرية من مدن.

ويدفعنا أيضًا إلى الشك فى صحة هذه القصة ما هو معروف مشهور عن الطيور المختلفة وخاصة الحمام واليمام من أنها تتخير لأعشاشها وبيضها وفراخها الأماكن المنعزلة المهجورة البعيدة عن أن يطرقها إنسان أو تنالها الأيدى صونًا للأعشاش وحفظًا للبيض وإبقاء على الصغار.

فهل من المعقول إذن أن تترك هذه اليمامة العمرية تلك الأماكن الآمنة لتضع بيضها فى معسكر دائم النشاط دائب الحركة، وفى خيمة القائد، وهى أنشط أماكن المعسكر بالحركة وأعمرها بالوافدين؟.

وإذا كانت هذه القصة صحيحة ففى أى مكان من الخيمة تبنى اليمامة عشها، والخيمة كما نعرفها جميعا مصنوعة من قماش أملس وهى منحدرة الجوانب إذا نصبت[1].

كل هذا يؤيد شكنا فى صحة هذه القصة وكونها أصلاً للتسمية.

أما الرأى الثانى فيبدو كذلك بعيدًا عن الصحة، وذلك لأن ابن قتيبه يروى فى كتابه «غريب الحديث» حديثًا للرسول نصه: «عليكم بالجماعة فإن يد الله على الفسطاط»[2]، ونحن إزاء هذا نجد أنفسنا أمام احتمالين: إما إن يكون الحديث صحيحًا فيبطل الرأى القائل بأن العرب أخذوا كلمة الفسطاط عن الروم عند اتصالهم بهم فى حروب الشام، لأن حروب الشام واتصال العرب بالروم كان بعد وفاة النبى ﷺ. وبالتالى بعد ذكره لهذا الحديث، وإما أن يكون الحديث غير صحيح، وبذلك يحتمل أن يكون رأى مؤرخى الفرنجة صحيحًا.

---

(١) يذكر هذه القصة بالتفصيل مؤرخو العرب جميعا، انظر مثلاً: المقريزى، المرجع السابق ص ٧٦؛ وابن دقماق: المرجع السابق، ص ٢، ومراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، إبريل سنة ١٨٤١م، جـ ٢ ص٣٥٤؛ وأبو المحاسن، النجوم الزاهرة، جـ ١، ص ٦٤، ٦٥، القاهرة سنة ١٩٢٩م.. إلخ غير أنه يتضح بعد مناقشتها أنها من وضع هؤلاء المؤرخين كغيرها من القصص التى تنسب لعهد الفتح، وخاصة قصة الفتاة التى كانت تقدم ضحية ليفيض النيل، والخطاب الذى أرسله عمر ليلقى بدلاً من الفتاة.

(٢) ورد هذا الحديث أيضًا فى: ابن دقماق: الانتصار، ج ٤، ص ٢، انظر أيضًا ياقوت: معجم البلدان.

غير أننا نحب أن ندلى برأى يخالف هذين الرأيين وقد يكون أقرب منهما إلى الحقيقة، وذلك أن كلمة الفسطاط كلمة عربية معناها المدينة، فإننا إذا رجعنا إلى القاموس المحيط وجدنا أن «الفسطاط» بالضم «مجتمع أهل الكورة»، ووجدنا أن الكورة هى «الصقع أو المدينة» وبذلك تكون الفسطاط هى مجتمع أهل المدينة.

ويقول ابن قتيبة تعقيبًا على الحديث سالف الذكر: «والفسطاط المدينة»[1]، وينقل عنه المقريزى أيضًا فى الخطط ما يلى: «قال ابن قتيبة.كل مدينة فسطاط»[2].

ويقول المقريزى بعد هذا: «وأخبرنى أبو حاتم الأصمعى أنه قال:حدثنى رجل من بنى تميم قال: قرأت فى كتاب رجل من قريش هذا ما اشترى فلان بن فلان من عجلان مولى زياد، اشترى منه خمسمائة جريب حيال الفسطاط، يريد البصرة»[3].

ويشبه هذه الرواية الأخيرة ويؤيدها قول ابن الفقيه:

«وإنما سميت البصرة فسطاطًا على التشبيه بفسطاط مصر»[4].

وقريب من هذا المعنى قول المقدسى: «الفسطاط هو مصر فى كل قول»[5].

فالراجح عقلاً بعد ذكر هذه الآراء جميعا أن كلمة «فسطاط» كلمة عربية خالصة معناها «المدينة».

وخلاصة القول الذى نريد أن نذهب إليه أن العرب اختاروا هذا المكان اختيارا للأسباب السابق ذكرها، وأنهم سموه الفسطاط أى «المدينة» أو«مجتمع أهل المدينة».

يقصدون بذلك المكان الذى يجتمعون فيه حول جامعهم وحول منزل قائدهم.

---

(١) ابن دقماق: الانتصار، جـ ٤، ص ٢.

(٢) يقول القلقشندى: صبح الأعشى، جـ ٣، ص ٢٢٦ «قال ابن قتيبة إن كل مدينة تسمى فسطاط، ولذلك سميت مصر الفسطاط».

(٣) المقريزى: المرجع السابق، ٢ ج، ص ٧٥ – ٧٦.

(٤) ابن الفقيه: كتاب مختصر البلدان، ص ٦٧.

(٥) المقدسى: أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ص ١٩٧.

الفصل الثانى

مدينـة الفسـطاط

من الناحية العمرانية

(أ) تخطيط المدينة

كان أول ما عنى به عمرو بن العاص بعد أن خضعت له مصر أن بدأ يشـيد مسجده الجـامع فى الحاضرة التى اختارها، وبنى فى شرقى المسجد دارًا خاصة لسكنه كانت تعرف بعد ذلك باسم «دار عمرو الكبرى»، وكان مدخله إليها من بابـها القبلـى الـذى فـى زقـاق القنـاديل»[1]، أعمر الأزقة بالفسطاط وسكن كبار القوم فيما بعد، كما بنى ابنه عبد الله بن عمـرو دارًا ملاصقـة لدار أبيه، عرفت باسم «دار عمرو الصغرى»[2].

وقد اختطت القبائل العربية حول المسجد الجامع ودار عمرو، واختار عمرو أربعة نفر يمثلون القبائل الكبرى لتقسيم الخطط بين القبائل حتـى لا ينشـب بينـها نـزاع، وهـؤلاء الأربعـة هـم: معاوية بن حديج التجيبى، وشريك بن سمى الغطيفى من مراد، وعمرو بـن مخـزوم الخولانـى، وحيويل بن ناشرة المعافرى، «فكانوا هم الذين أنزلوا الناس، وفصلوا بـين القبـائل، وذلـك فـى سنة إحدى وعشرين»[3].

وقال ابن عبد الحكم إنه لما اختطت القبائل استحبت همدان وما والاها الجيزة، فكتب عمرو ابن العاص يستفتى عمر فى ذلك، فأرسل إليه عمر يقول:

«كيف رضيت أن تفرق أصحابك، ولم يكن ينبغى لك أن ترضى لأحد من أصحابك أن يكون بينك وبينهم بحر، لا تدرى ما يفجؤهم، فلعلك لا تقدر على غياثهم حين ينزل بهم مـا تكـره، فاجمعهم إليك، فإن أبوا وأعجبهم موضعهم فابن عليهم من فيء المسلمين حصنًا»[4].

وأبلغ عمرو هذه القبائل أوامر الخليفة، فأبوا أن يغيروا موضعهم الذى اختاروه فـى الجـيزة، فبنى لهم عمرو الحصن الذى فى الجيزة فى سنة إحدى وعشـرين، وفـرغ مـن بنائـه فـى سـنة اثنتين وعشرين.

---

(١) و (٢) ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ج ٤، ص ٧.

(٣) ابـن دقمـاق: المرجـع السـابق، جـ ٤، ص ٣ والسـيوطى: حسـن المحـاضرة، جـ ١، ص ٥٧ ٥٨؛ القلقشندى: صبح الأعشى، جـ ٣، ص ٣٠٧.

(٤) ابن دقماق: المرجع السابق جـ ٤، ص ٣.

واختطت قبائل همدان وذو صبح ونافع وغيرها بالجيزة، وتركوا فضاء بين القبيل والقبيل، فلما قدمت الإمداد فى زمن عثمان بن عفان وما بعد ذلك، وكثر الناس «وسع كل قوم لبنى أبيهم حتى كثر البنيان والتأمت خطط الجيزة»[1].

ويقول بتلر:

«لا شك فى أن الذين اختطوا المدينة الجديدة وبنوها كانوا من القبط، إذ لم يكن عند ذلك فى العرب من له علم بذلك الفن ولا دراية به».

ولكن غالبية المؤرخين المحدثين لا يتفقون مع بتلر فى هذا الرأى، بل يأخذون بآراء المؤرخين العرب القدامى التى تعهد بتخطيط المدينة إلى الأربعة السابق ذكرهم، إذ لم تكن الفسطاط وقت إنشائها من التعقيد والكبر بحيث تحتاج لخبرة القبط أو فنهم.

ويصنف «متز» فى كتابه «الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى»[2] المدن التى أسست فى الدولة الإسلامية إلى أربعة أنواع:

١ - مدن على الطراز الهيلينى المعروف فى حوض البحر الأبيض المتوسط.

٢ - والمدن التى كانت تشيد على الطراز البابلى.

٣ - والمدن التى كانت على الطراز المعروف فى شرقى الدولة الإسلامية (الإيرانى مثلاً).

٤ - والمدن التى على طراز جنوبى جزيرة العرب، ومثلها صنعاء، ومن هذا الطراز مكة والفسطاط.

ومن البديهى أن تشيد الفسطاط على هذا الطراز العربى لأن معظم جيش عمرو الذى فتح مصر كان يتكون من قبائل يمنية كقبيلتى عك، والمغافر وغيرهما.

وهذا الطراز يعتبر أبسط الطرز الأربعة السابق ذكرها، فهو لا يعدو أن يكون تخطيطًا ساذجًا للمدينة بحيث ينزل كل قوم من قبيلة فى مكان خاص بهم، وسميت هذه المنازل فى الفسطاط بالخطط، وستسمى فى القاهرة عند إنشائها بالحارات.

وإذ كان العرب أمة بدوية تعتمد الاعتماد كله فى الحرب والمعيشة والانتقال على الدواب من خيل وجمال، فقد تركوا حين اختطوا المدينة، «بينهم وبين البحر والحصن فضاء لتفريق دوابهم وتأديبها، فلم يزل الأمر كذلك حتى ولى معاوية بن أبى سفيان، فأقطع فى الفضاء وبنيت به الدور[3]، كما كان أمام دار عمرو الكبرى موقف لدواب الجند[4].

---

(١) ابن دقماق. نفس المرجع، جـ ٤ ص ٣.

(٢) الترجمة العربية لمحمد عبد الهادى أبو ريدة، ج ٢، ص ٢٢٧.

(٣) السيوطى: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٨٥.

(٤) ابن دقماق: المرجع السابق، ج ٤، ص ٧.

وكان يفصل بين المنازل أنواع من الطرق المختلفة الاتساع والامتداد، فأكبرها لا يزيد عرضه عن ستة أمتار، وأضيقها لا يتجاوز مترًا ونصف متر»[1]، وكان يطلق عليها بنسبة عرضها أو اتساعها أو طولها أو اتصالها اسم: حارة، أو درب، أو زقاق، وكانت تسمى بأسماء القبائل التى نزلت بها، أو كبار العرب الذين سكنوها، أو بأسماء الحرف والصناعات أو أنواع التجارة.. إلخ.

ولم تكن هذه الطرق ممهدة أو مغطاة بطبقة من البلاط أو أى مادة أخرى لتجعلها نظيفة، يؤيد هذا ما يقوله على بهجت ومحمود عكوش:

«ويظهر أن أرض الدروب وغيرها من الطرقات لم تكن مبلطة فإنا لم نعثر فى أى موقع من مواقع المدينة المكشوفة على أثر للبلاط أو أن الأرض مفروشة بمادة أخرى»[2].

ولم يكن يحيط بالفسطاط سور فى أول أمرها، وإن كان ابن دقماق يذكر أنه كان بها من ناحية خط الحمراء القصوى «باب مصر» وكان به برجان يمنة ويسرة، بعتبة سفلى صوانًا، وقوس معقود عليه، ودفتين تغلقان عليه، يسلك منه إلى الفواخير.. وكان يسلك منه إلى أربعة طرق، الأول الطريق إلى القاهرة، وعلى يمنته إلى الفواخير، وعلى يسرته إلى البحر وإلى مصر»[3].

وفى عهد صلاح الدين بنى السور الكبير الذى كان يحيط بالقاهرة والفسطاط وما بينهما.

وكانت المبانى الأولى فى الفسطاط غاية فى البساطة، وكلها من اللبن، فقد كان المسجد الجامع - وهو أهم مبانيها - ذا سقف منخفض وليس به نوافذ أو فراغ فى السقف حتى يتخلله الهواء، ولم يكن له صحن، «وكان الناس يصلون بفنائه»[4].

وكانت الدور وقت إنشاء المدينة كلها من طابق واحد، وأول من بنى غرفة فوق الطابق الأول هو خارجة بن حذافة، فكتب عمر إلى عمرو «أن أدخل غرفة خارجة، وانصب فيها سريرًا، وأقم عليه رجلاً ليس بالطويل ولا بالقصير، فإن أطلع من كواها فاهدمها»، ففعل ذلك عمرو، فلم يبلغ الكوى فأقرها[5].

ومن هذه الرواية نعرف أن العرب لم يجعلوا لمنازلهم الأولى نوافذ، بل اتخذوا فيها كوى، وكانت هذه الكوى مرتفعة تقرب من السقف، بحيث أن الرجل الواقف على السرير لا يستطيع أن ينظر منها إلى الخارج.

---

(١) بهجت وعكوش: حفريات الفسطاط، ص ٣٧.

(٢) بهجت وعكوش: حفريات الفسطاط، ص ٣٧.

(٣) ابن دقماق: ج ٤، ص ٢٧.

(٤) نفس المرجع السابق ص ٦٢.

(٥) ابن دقماق، ص ٦، والسيوطى: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٥٩، والقلقشندى: صبح الأعشى، ج ٣، ص٢٣٠، وقد تولى خارجة الشرطة لعمرو بن العاص. انظر: الكندى: الولاة، ص ١٠.

ولم تلبث المدينة على بساطتها طويلاً، فقد كثر سكانها، وعلت منازلها حتى أصبحت تبلغ الأربع أو الخمس طبقات[1]، أو السبع أو الثمانى طبقات فى رواية أخرى[2]، وأصبحت أكثر المبانى تبنى «بالآجر المحكوك والجبس والجير من أوثق بناء وأمكنه»[3]، ولم تكن أسفل الدور تسكن، وربما سكن الدار الواحدة المائتان من الناس[4].

ويقول ناصر خسرو:

«وتبدو مصر من بعيد كأنها جبل، وبها بيوت من أربع عشرة طبقة، وبيوت من سبع طبقات.. وبها أسواق وشوارع تضاء فيها القناديل دائمًا، لأن ضوء الشمس لا يصل إلى أرضها[5]..

ثم يروى بعد ذلك أن بعض الناس كانت له دار من سبع طبقات فأصعد إلى سطحها عجلاً صغيرًا، وغذاه حتى غدا ثورًا، وركب فى السطح ساقية يديرها الثور، فصعد الماء إلى السطح الذى غرس فيه شجر البرتقال من الحلو والمالح والموز وأشجارًا أخرى مثمرة، وزرع فيها الأزهار والرياحين من سائر الأنواع.

وقد قامت مصلحة الآثار العربية فى أوائل هذا القرن بحفائر فى مصر العتيقة لدراسة الآثار الباقية لمدينة الفسطاط ومبانيها، ووضعت رسومًا مختلفة لما وجدته من بقايا المنازل بهذه المدينة، ومنها يمكن أن نتصور هذه المنازل كما كانت «قطعًا عظيمة من البناء قائمة على غير استواء ولا نظام، تدعمها أعمدة رومانية، لا شىء فيها من الزينة ولا من جمال التنسيق، تشبه كل الشبه ما هو موجود - أو كان موجودًا - فى مدينة رشيد من البناء فى العصر العثمانى»[6].

---

(١) بتلر: فتح العرب لمصر، الترجمة العربية، ص ٢٩٨.

(٢) متز: الحضارة العربية، ٢، ص ٢٢٧.

(٣) صبح الأعشى: ٣، ص ٢٢٧.

(٤) الأصطخرى: ص ٤٩؛ وابن حوقل: ص ٩٦؛ والمقدسى: ص ١٩٨.

(٥) ناصر خسرو: سفر نامة، الترجمة العربية للدكتور يحيى الخشاب، ص ٨٥.

(٦) عبد الرحمن زكى: القاهرة، ج ١، ص ١٤.

(ب) نمو المدينة
شرقًا وغربًا

تقدمة :

كان من أهم ما يميز مدينة الفسطاط عند تأسيسها أنه روعى أن يكون فى أحد أطرافها فضاء يسمح لها بالنمو والزيادة فى مستقبل أيامها ، ذلك الطرف هو الشمال الشرقى للمدينة ، وفيه بنيت مدينة العسكر ، ثم قامت مدينة القطائع - عاصمة الطولونيين - ، ثم أنشئت القاهرة - عاصمة مصر منذ الفتح الفاطمى حتى اليوم - ، وقد امتدت القاهرة فى اتساعها فى العصر الحديث فى هذا الاتجاه ذاته ، فبنيت فى شماليها الشرقى العباسية ، ثم مصر الجديدة .

ولم يكن هناك مجال لامتداد المدينة فى الجهة الشرقية البحتة ، إذ كان يحول جبل المقطم دون الامتداد فى هذه الناحية ، فاكتفى المسلمون ببناء مقابر موتاهم فى سفح هذا الجبل .

وفى الجنوب امتدت المدينة إلى حيث يمكن أن تمتد ، فكان حدها الجنوبى بركة الحبش، وما يليها من أراض زراعية .

وكان النيل يقوم حاجزًا طبيعيًا منع امتداد المدينة نحو الغرب ، ولكنه لم يبق كذلك مدة طويلة ، إذ لم يلبث سكان المدينة بعد نموها السريع أن عبروا النيل إلى الجزيرة ، فاتخذوها لهم سكنًا ومنتزها . وبنى فيها الولاة والأفراد والخلفاء القصور . وأنشأوا البساتين ، ثم لم يلبثوا أن عبروا النيل مرة أخرى إلى الجيزة ، حيث استقروا هناك إلى جانب القبائل العربية الأخرى التى تخيرت الجيزة سكنًا لها عند تأسيس الفسطاط ، كما سبق أن ذكرنا .

١ - نمو المدينة شرقًا

(أ) العسكر

ظلت الفسطاط - بعد نموها السريع - العاصمة الوحيدة لمصر الإسلامية ، ومقر قضاتها وجنودها مدة مائة وثلاثة عشر عامًا وسبعة أشهر ، تولى حكم مصر فى خلالها تسعة وعشرون أميرًا من قبل الخلفاء الراشدين والأمويين ، أولهم عمرو بن العاص ، وآخرهم صالح بن على العباسى أميرها من قبل الخليفة العباسى الأول أبى العباس السفاح ، ومن بعده بنيت العاصمة الجديدة (العسكر) ، وأصبحت كضاحية عسكرية للفسطاط ، ينزل بها الولاة من قبل الخلفاء العباسيين .

كان مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية قد فر إلى مصر منهزمًا أمام جيوش العباسيين ، ونزل بالفسطاط ، وتبعه إلى مصر القائد العباسى صالح بن على بجيشه ، ففر مروان مرة أخرى من الفسطاط ، ولكنه أشعل النار قبل أن يفر فى بعض مبانى المدينة ، كما أحرق الجسر الذى يصلها بجزيرة الروضة . وانتقل إلى شاطئ النيل الغربى متجهًا نحو الجنوب . وتتبعه القائد العباسى حتى أدركه عند قرية بوصير ، وقتله بعد القبض عليه .

وكما انتقلت الخلافة العباسية من دمشق إلى بغداد فاتخذتها حاضرة لها ، كذلك كره ولاة العباسيين فى مصر أن ينزلوا بالعاصمة القديمة الفسطاط . وقد يكون ذلك لأن الحريق خرب دار الإمارة بالفسطاط وشطرًا كبيرًا من المدينة ، أو لأن الفسطاط ضاقت بعساكر العباسيين ، أو لأن الدولة الجديدة أرادت أن تتخذ لها عاصمة جديدة ، شأن الدول الجديدة فى الشرق منذ أقدم العصور .

وبدأ القائدان العباسيان صالح بن على وأبو عون فى بناء المدينة الجديدة حيث نزلا بعساكرهما فى الشمال الشرقى للفسطاط ، ولذلك سميت المدينة بالعسكر (أو المعسكر) ، وكان هذا المكان يعرف عند تأسيس الفسطاط باسم الحمراء القصوى ، وكانت قد نزلت به ثلاث قبائل من العرب ، وهم : بنو يشكر بن جزيلة من لخم ، وبنو الأزرق - وهم من الروم - وبنو روبيل (وكان يهوديًا فأسلم)[١] .

و كان أفراد هاتين القبيلتين الأخيرتين - كما يقول ابن دقماق - (ممن سار مع عمرو بن العاص من الشام إلى مصر من عجم الشام ممن كان رغب فى الإسلام من قبل اليرموك ومن أهل قيسارية وغيرهم)[٢] .

---

(١) ابن دقماق : الانتصار ، جـ ٤ ، ص ٥ ، وانظر القلقشندى : صبح الأعشى : جـ ٣ ، ص ٣٢٩ ، حيث يقول (سميت بذلك لنزول الروم بها وهم حمر الألوان).

(٢) ابن دقماق : الانتصار ، جـ ٤ ، ص ٥ ، وانظر القلقشندى : صبح الأعشى : جـ ٣ ، ص ٣٢٩ ، حيث يقول (سميت بذلك لنزول الروم بها وهم حمر الألوان).

ويقال إن هذه الخطة سميت بالحمراء (لنزول الروم بها)[1] وكانت هذه الخطط قد اندثرت بمرور الزمن حتى صارت صحراء ، وفيها نزل صالح بن على بجنوده حتى ملأوا الفضاء - كما يقول المقريزى - وفى سنة ١٣٣هـ أمر أبو عون - والى مصر - أصحابه بالبناء فيها .

وكانت العسكر يحدها جنوبًا كوم الجارح ، حيث تمتد الآن قناطر المجرى (العيون) وشمالاً شارع مراسينا إلى ميدان السيدة زينب ، حيث قناطر السباع أمام المشهد الزينبى ، وغربًا بين شارع السد والديورة ، وكانت العسكر فى هذا الحد تمتد على شاطئ النيل ، لأن النيل كان فى ذلك الوقت أقرب إلى الشرق من موضعه الحالى ، لأنه كان يجرى بجانب المرتفع المشيد عليه جامع عمرو بن العاص ، ثم ابتعد عنه على توالى الزمن نحو خمسمائة متر .

وكان الحد الشرقى خطًا تصوريًا يمتد من مصطبة فرعون بجوار مسجد الجاولى بشارع مراسينا إلى باب السيدة نفيسة[2] . وقد بنيت فى العسكر بعد ذلك دار الإمارة ومسجد جامع عرف باسم جامع العسكر ، ودار للشرطة سميت (بالشرطة العليا) تمييزًا لها عن الشرطة السفلى بالفسطاط ، وأصبح الولاة ينزلون منذ ذلك الحين بالعسكر دون الفسطاط ، وصار الناس- كما يذكر المقريزى - يقولون من يومئذ : (كنا بالعسكر ، وخرجنا إلى العسكر ، وكتب من العسكر، وصار مدينة ذات محل وأسواق ودور عظيمة)[3] .

وفى هذه المدينة أيضًا بنى أحمد بن طولون - فيما بعد - بيمارستانة بالقرب من بركة قارون التى بنى إلى جانبها كافور الإخشيدى كذلك دارًا لسكنه ، صرف عليها مائة ألف دينار ، (وصار العسكر مدينة ذات أسواق ودور عظيمة)[4] .

وسكن العسكر خمسة وستون واليًا حكموا مصر نيابة عن خلفاء بنى العباس لمدة ١١٨ سنة ، حتى ولى أحمد بن طولون فأنشأ مدينته الجديدة للقطائع ، وبانتهاء دولة بنى طولون هدمت القطائع ، وعاد الولاة - وأولهم محمد بن سليمان - إلى دار الإمارة فى العسكر ، إلى أن قدم القائد جوهر وبنى القاهرة ، فهجرت العسكر ودار إمارتها ، ونزل خلفاء الفاطميين فى القصر الكبير بالقاهرة .

وقد استمرت العسكر عامرة بمبانيها وأسواقها حتى بدء الدولة الفاطمية ، إلا أنه منذ بنيت القطائع (هجر اسم العسكر وصار يقال مدينة الفسطاط والقطائع وربما قيل العسكر أحيانًا)[5] .

---

(١) ابن دقماق : الانتصار ، جـ ٤ ، ص ٥ ، وانظر القلقشندى : صبح الأعشى : جـ ٣ ، ص ٣٢٩ ، حيث يقول (سميت بذلك لنزول الروم بها وهم حمر الألوان).

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ١ ، ص ٣٢٦ .

(٣) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٨٩ .

(٤) النجوم الزاهرة : جـ ١ ، ص ٣٢٧ .

(٥) المقريزى : الخطط : جـ ٢ ، ص ٩٠ .

(ب) القطائع

لما ولى أحمد بن طولون على مصر ، اتخذ لنفسه جيشًا كبيرًا كان معظمه من السودانيين والروم والأتراك ، فضاقت بهم الفسطاط والعسكر ، فأراد أن يبنى لهم عاصمة جديدة ، وبناها فى الفضاء الذى كان بين العسكر وبين جبل المقطم ، وكانت تشغله قبل ذلك مقابر قديمة للنصارى واليهود ، فأمر بحرثها .

وبنى فيها قصره العظيم ، وشيد جامعه المعروف باسمه عندما ضاق بجنده وحاشيته جامعًا الفسطاط والعسكر . وبجوار المسجد بنى دارًا جديدة للإمارة فى جهته القبلية ، ولها باب فى جدار الجامع يخرج منه إلى المقصورة المحيطة بمصلى الأمير إلى جوار المحراب .

وجعل بين القصر والمسجد ميدانًا كبيرًا لسباق الخيل وعرض الجند ، ثم أمر غلمانه وأتباعه أن يختطفوا لأنفسهم فى المدينة الجديدة (فاختطفوا وبنوا حتى اتصل البناء بعمارة الفسطاط)[1] .

وسميت المدينة الجديدة بالقطائع ، لأنها قطعت وقسمت على الجند ، وسميت كل قطيعة باسم من سكنها ، فكانت للنوبة قطيعة ، وللسودان قطيعة ، وللروم قطيعة ، .. وهكذا .

وبنى القواد فيها قصورا لسكنهم ، فعمرت المدينة واتسعت (وتفرقت فيها السكك والأزقة ، وبنيت فيها المساجد الحسان والطواحين والحمامات والأفران وسميت أسواقها ، فقيل : سوق العيارين - وكان يجمع العطارين والبزازين - وسوق الفامين - ويجمع الجزارين والبقالين والشوايين - فكان فى دكاكين الفاميين جميع ما فى دكاكين نظرائهم فى المدينة وأكثر وأحسن ، وسوق الطباخين - ويجمع الصيارف والخبازين والحلوانيين - ولكل من الباعة سوق حسن عامر ، فصارت القطائع مدينة كبيرة)[2] ، (وتزايدت العمارة حتى اتصلت بالفسطاط ، وصار الكل بلدًا واحدًا)[3] .

وكان موضع مدينة القطائع : من قبة الهواء - التى بنيت مكانها قلعة الجبل فيما بعد - إلى مسجد ابن طولون ، وهذا طولها . وأما عرضها ، فكان يبدأ من الرميلة إلى ما يعرف الآن بحى زين العابدين ، وكانت مساحتها ميلاً فى ميل .

وتشبه القطائع مدينة سامرا من أوجه كثيرة ، فإن الخليفة العباسى المعتصم كان قد رأى بعد أن صعب عليه التوفيق بين سكان بغداد وجنده من الأتراك أن يبنى مدينة جديدة ، فأمر قائده أشناس ، فبنى له مدينة سامرا ، وأسكنها الجند الأتراك . وكذلك فعل أحمد بن طولون ، فقد كان جيشه كبيرًا ويتكون من عناصر أجنبية كالروم والأتراك والسودانيين ، فضاقت بهم

---

(١) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٠٦ .

(٢) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٠٦ ؛ وانظر أيضًا :

St. lane-Poole : History of Egypt in the Middle Ages. P. 63.

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ٣٣٢ .

الفسطاط والعسكر ، فأسرع ابن طولون وبنى لهم العاصمة الجديدة ، وقسمها إلى قطائع ، لكل فرقة من جنس واحد قطيعة خاصة بها . وكان طراز العمارة والزخرفة يشبه تماما الطراز الذى اتبع فى بناء وزخرفة دور سامرا ، تشهد بذلك الزخارف الجصية التى عثر عليها فى جدران دار من العصر الطولونى كشفتها دار الآثار العربية عام ١٩٣٢م . وكذلك نلاحظ أن مئذنة الجامع الطولونى بنيت على نمط مئذنة جامع سامرا . وهكذا بنيت العاصمة الطولونية مشابهة تمام الشبه لعاصمة الخلافة العباسية الجديدة (سامرا) ، ولم يكن قد مضى على تأسيسها وقتذاك أكثر من أربع وثلاثين سنة[1] .

ولما انتهى أمر الدولة الطولونية إلى الضعف ، دخل مصر القائد العباسى محمد بن سليمان فى سنة ٢٩٢هـ (٩٠٤م) . فأشعل النار فى القطائع ، وانتشر أصحابه فيها وفى الفسطاط ينهبون الدور والمساكن ، وكسروا السجون وأطلقوا سراح من فيها ، واستباحوا النساء . وهتكوا الرعية ، وأخرجوا الناس من دورهم ، وقتل ابن سليمان عددا كبيرا من الفرقة السودانية إحدى فرق الجيش الطولونى .

وفى السنة التالية (٢٩٣هـ - ٩٠٥م) أمر الحسين بن أحمد المادرائى - متولى خراج مصر - بهدم الديوان ، فهدم وبيعت أنقاضه . وهكذا خربت القطائع وهدمت دورها ، وكانت تزيد على ألف دار (نزهة للناظرين ومحدقة بالجنان والبساتين)[2] .

هذا وقد قضت المجاعة العظمى التى حدثت فى عهد الخليفة الفاطمى المستنصر على البقية الباقية من القطائع ، حتى اضطر رجال الدولة إلى بناء سور يبتدئ من باب زويلة بالقاهرة وينتهى عند جامع عمرو بن العاص بالفسطاط ليستر خلفه خرائب القطائع والعسكر ، حتى لا يتأذى الخليفة الفاطمى برؤيتها أثناء ذهابه من القاهرة إلى الفسطاط .

ثم أقبل الناس على هذه الخرائب يأخذون من أنقاضها كلما احتاجوا . وتحولت المساحة الكبيرة بين القاهرة والفسطاط ، فأصبحت بمرور الزمن صحراء جرداء مرة أخرى ، وعاد الفسطاط مركزها القديم الممتاز ، وظلت سنين طويلة - رغم وجود القاهرة - المدينة الكبرى الآهلة بالسكان ، العامرة بالأسواق ودور التجارة والصناعة والمساجد والمدارس والحمامات .

---

(١) راجع كتاب (فى مصر الإسلامية) ، ص ١٠٨ ؛ والفصل الخاص بالفن الطولونى ، من كتاب الدكتور زكى محمد حسن Les Tulunides. Paris, 1933 .

(٢) المقريزى : الخطط ، جـ ، ص ١٢٤ .

(جـ) القاهـرة

عادت مصر بعد زوال دولة الطولونيين إلى تبعيتها السابقة للخلافة العباسية ، ثم استقل بها الإخشيديون بعد سنوات ، وحكموها فى المدة بين ٣٢٣هـ و ٣٥٨هـ .

وفى السنة الأخيرة ، انتهى أمر هذه الدولة كذلك إلى الضعف والانحلال ، ونجح الفاطميون فى غزوها بعد محاولات كثيرة ، فاستولى جوهر على الإسكندرية ، ودخلت جيوشه الفسطاط فى شعبان سنة ٣٥٨هـ (يوليو سنة ٩٦٩م) ، ثم عسكرت فى السهل الرملى الواقع شمال المدينة ، وكان يحد هذا السهل من الشرق جبل المقطم ، ومن الغرب خليج أمير المؤمنين ، ولم يكن بهذا السهل إلا دير مسيحى قديم اسمه دير العظام ، وبعض المبانى المتصلة ببستان كافور ، وحصن صغير يسمى قصر الشوك .

وفى مساء ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ وضع جوهر أساس المدينة الجديدة (القاهرة)[١] .

---

(١) انظر الحديث المفصل عن القاهرة فى الكتاب الثانى من هذا المجلد الخاص بالعصر الفاطمى .

٢ - نمو المدينة غربًا

(أ) جزيرة الروضة

تقابل الفسطاط على الضفة الغربية للنيل جزيرة قديمة يحيط بها الماء، ويفصل بينها وبين الفسطاط من ناحية وبينها وبين الجيزة من ناحية أخرى.

وكان على الجزيرة حصن رومانى قديم يعتبر ملحقًا لحصن بابليون وجزءًا من وسائل الدفاع عن رأس الدلتا، وقد خرب عمرو بن العاص بعض أبراج هذه الجزيرة وأسوارها[١].

وكان يربط الجزيرة بالفسطاط فى العصر الإسلامى جسر يمر عليه الناس والدواب كما كان يربطها بالجيزة جسر آخر، «وكان هذان الجسران من مراكب[٢] مصطفة بعضها بحذاء بعض، وهى موثقة، ومن فوق المراكب أخشاب ممتدة فوقها تراب، وكان عرض البحر ثلاث قصبات»[٣].

وكانت الروضة تعرف فى العصر الإسلامى الأول باسم: الجزيرة أو جزيرة مصر، ثم بنى عليها أحمد بن طولون حصنًا، فعرفت بجزيرة الحصن، كما كانت تسمى بجزيرة الصناعة لوجود دار الصناعة بها.

ولما ولى محمد بن طغج الإخشيد على مصر، نقل الصناعة إلى ساحل الفسطاط، وأنشأ بالجزيرة بستانًا سماه «المختار»، وجعل فيه دارًا للغلمان، ودارًا للنوبة، وخزائن للكسوة، وخزائن لطعام.

وفى العصر الفاطمى أنشأنها الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى حدائق ومتنزهات، وسماها «الروضة» - فعرفت بهذا الاسم منذ ذلك الحين - وكان يتردد إليها كثيرًا، فينتقل فى السفن من دار الملك - وهى سكنه بالفسطاط - إلى الروضة، وفى نفس العصر بنى الخليفة الآمر بأحكام الله بجوار البستان المختار قصرا لمحبوبته البدوية «العالية» سماه الهودج.

وهكذا ظلت الجزيرة قرونًا طويلة تعتبر كضاحية ملكية يبنى فيها الأمراء والوزراء والخلفاء حصونهم وقصورهم وبساتينهم، كما كانت أيضًا سكنًا لمن ضاقت بهم الفسطاط، ومتنزها جميلاً

---

(١) القريزى: الخطط، ج ٣، ص ٢٩٩.

(٢) يقول (ابن حوقل: المسالك والممالك، ص ٩٦) إن هذا الجسر كان يتكون من نحو ثلاثين سفينة، ويذكر ناصر خسرو فى رحلته أن الجسر كان مكونًا من ٣٧ سفينة.

(٣) القريزى. الخطط، ج ٣ ص ٢٧٦، وانظر أيضًا: القلقشندى: صبح الأعشى ج ٣، ص ٣٣٥.

لساكنى العاصمة وزاد فى أهميتها أنها كانت مقرًا لمقياس النيل الذى بناه أسامة بن زيد التنوخى سنة ٩٧هـ بأمر الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك، ولذلك تعرف أيضًا باسم «جزيرة المقياس». ويذكر الشريف الإدريسى أن طول الجزيرة كان نحو ميلين، وأن عرضها مقدار رمية سهم[١].

وكانت النصارى تتولى قياس النيل عند فيضانه والإشراف على المقياس، حتى كان عهد الخليفة المتوكل، فعزلهم ورتب مكانهم عبد الله بن عبد السلام ابن أبى الرداد، واستمر بنوه يتولون هذه الوظيفة حتى القرن العاشر الهجرى تقريبًا (١٦م).

وفى أواخر العصر الأيوبى، بنى الملك الصالح نجم الدين أيوب قلعة فى هذه الجزيرة أسكنها مماليكه البحرية، وذلك فى سنة ٦٣٨ هـ، وقد بقيت هذه القلعة تعرف باسم «قلعة المقياس» و «قلعة الروضة»، و «قلعة الجزيرة» و «القلعة الصالحية»[٢] - حتى هدمها المعز أيبك التركمانى وبنى من أنقاضها مدرسته المعزية بالفسطاط.

ويذكر ابن حوقل الذى زار مصر حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى (١٠م) أنه كان بالجزيرة «أبنية حسنة ومساكن جليلة»[٣]، كما يذكر الشريف الإدريسى أن بها المبانى والمتنزهات ودار المقياس»[٤].

ويقول المقريزى إنها كانت: «متنزها مملوكيًا ومسكنًا للناس»[٥]، وأنه كان فيها من البساتين والعمائر والثمار ما لم يكن فى غيرها[٦].

وقال الكندى: «ثم غلب عليها اسم الروضة لحسنها ونضارتها وإطافة الماء بها، وما بها من البساتين والقصور»[٧].

---

(١) الإدريسى: نزهة المشتاق، ص ١٤٤ - ١٤٥.
(٢) المقريزى، الخطط، ج ٣، ص ٢٩٧.
(٣) ابن حوقل: المسالك والممالك، ص ٩٦.
(٤) الشريف الإدريسى: نزهة المشتاق، ص ١٤٤.
(٥) المقريزى: الخطط، ج ٣، ص ٢٩٧
(٦) المقريزى: الخطط، ج ٣، ٢٩٩.
(٧) القلقشندى: صبح الأعشى، ج ٣، ص ٣٣٥.

(ب) الجيزة

وكانت الجيزة ضاحية أخرى من ضواحى الفسطاط فى الجهة للغربية. وقد ذكرنا فيما سبق أن قبيلة همدان ومن والاها استحبت النزول بها عند تخطيط الفسطاط، وأن عمرًا بنى لهم فيها حصنًا[1] تنفيذًا لأمر الخليفة عمر بن الخطاب.

وقد انضم إلى هذه القبائل فى فترات مختلفة العرب الذين وفدوا على مصر ممن ينتمون إلى هذه القبائل، وبنيت فيها المساجد، وأهمها: مسجد همدان، والمسجد الجامع الذى بناه محمد ابن عبد الله الخازن سنة ٣٥٠ هـ بأمر الأمير على بن الإخشيد.

ثم انتقل إليها الناس بعد ازدحام الفسطاط بالسكان، فكانت فيها: «بساتينهم وضياعهم ومتنزهاتهم»[2].

وكانت بها «أبنية جليلة ومساكن»[3]. وكان لها: «فى كل يوم أحد سوق عظيم يجىء إليه من النواحى أصناف كثيرة جدًا، ويجتمع فيه عالم عظيم، وبها عدة مساجد»[4].

---

(١) يقول اليعقوبى فى كتاب البلدان، ص ٣٣٠: «وابتنى حصن الجيزة فى الجانب الغربى من النيل، وجعله مسلحة للمسلمين، وأسكنه قومًا»، أنظر كذلك: المقريزى، الخطط، ج ١، ص ٣٣٢ - ٣٣٣.

(٢) ابن رسته: الأعلاق النفسية، ص ١١٦

(٣) ابن حوقل: المسالك والممالك، ص ٩٦.

(٤) المقريزى: الخطط، ج ١، ص ٣٣٢.

(جـ) نمو المدينة نفسها

عرفنا كيف امتدت المدينة شمالاً وشرقًا ثم غربًا، حتى إذا كان القرن الرابع الهجرى كانت هذه الضواحى جميعا قد اتصلت بالمدينة الأصلية، وأصبح يطلق على الجميع لفظ «مصر» أو لفظ «الفسطاط». غير أن الضواحى التى بنيت فى جهتها الشمالية الشرقية كانت ضواحى ملكية بنيت لسكن الأمراء والجند، وقد كان لهذا أثره وفضله. فإن سكن الجنود خارج المدينة منع ما كان يمكن أن ينشأ بينهم وبين السكان المدنيين من نزاع أو تخاصم يؤدى إلى الفوضى والشغب، كما كان يحدث دائمًا فى عاصمة الخلافة العباسية بغداد، فلذلك عاش سكان الفسطاط فى أمن وهدوء مما جعل المدينة تزدهر وتنمو صناعيًا وتجاريًا، ويزداد عدد سكانها، ومما جعل انتقام الدول المتعاقبة ينصب على هاته الضواحى فيهدمها ويحرقها ويخربها تاركًا المدينة الأصلية على حالها، لهذا عاشت الفسطاط عمرًا طويلاً، وفنيت فيها هذه المدن الجديدة.

أما الضاحيتان الغريمتان فكانتا تمتازان بكثرة الحقول والرياض والبساتين. فكأنهما كانتا متنزهين جميلين لسكان الفسطاط فى مختلف العصور.

سكان المدينة:

سكن المدينة عند إنشائها القبائل العربية التى كانت مع عمرو، ومعظمها كما أسلفنا من اليمن. وقسمت الخطط بينها، فكانت أهمها:

خطة أهل الراية وكان أصحابها من قريش ومن الأنصار ومن خزاعة وأسلم وغفار وجهينة وثقيف، وعدة قبائل أخرى.

- وخطة مهرة وتنتسب لحمير.

- وخطة تجيب من كندة.

- وخطط اللفيف، وسموا باللفيف لالتفاف بعضهم ببعض، وكان عامتهم من الأزد، ومن غسان ومن شجاعة.

- وخطط أهل الظاهر، وسموا بذلك لأن هذه القبائل كانت بالإسكندرية ثم وفدت بعد أن اختطت المدينة ونزل الناس، فتخاصموا إلى عمرو، «فقال لهم معاوية بن حديج - وكان ممن يتولى الخطط يومئذ.

«أرى لكم أن تظهروا على أهل هذه القبائل فتتخذوه منزلا»[1].

---

(١) ابن دقماق: الانتصار، ج ٤، ص ٣ - ٥.

- خطط الصدف، وهم بطن من كنده.

- خطط خولان.

- خطط الفارسيين، وهم قوم من بقايا جند بأذان عامل كسرى على اليمن قبل الإسلام، أسلموا بالشام ورغبوا فى الجهاد، فنفروا مع عمرو بن العاص فاختطوا بها.

- خطط تحصب، وهو حى من اليمن.

- وأخيرًا خطط الحمراوات الثلاث، وهم من الروم الذين أسلموا فى الشام وجاءوا إلى مصر فى جيش عمرو.

وواضح من ذكر أسماء هذه الخطط أن سكان المدينة فى عهدها الأول كانوا جميعا من العرب ومعهم فرق من الفرس[1] والروم[2] الذين أسلموا فى الشام.

وأصبحت المدينة أيضًا سكن قواد العرب وكبار الصحابة الذين وفدوا على مصر، فكان بها سكن عمرو بن العاص، وابنه عبد الله[3]، وسكن الزبير بن العوام[4]، وخارجة من حذافة، وشريك بن سمى، وعبد الله بن عمر بن الخطاب[5]، وعبد الله بن حذافة، وسعد بن أبى وقاص[6] ومسلمة بن مخلد[7]، وعقبة بن عامر الجهنى[8].

ثم ظلت الفسطاط سكنًا لكبار رجال الدولة وقضاتها ووزارائها ورؤساء دواوينها وعلمائها وفقهائها حتى بعد أن بنيت القاهرة وكبرت وازدهرت، فكان يسكن بها بنو عبد الحكم، ونزل بها الإمام الشافعى أثناء إقامته بمصر، وكانت بها دار الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى الوزير الفاطمى، ودار الحسين بن النعمان القاضى الفاطمى كذلك.

وكانت فى المدينة - شأن كل مدينة كبيرة - أحياء خاصة كان يسكنها عليه القوم وأثريائهم ووجوههم، وأحياء أخرى خاصة لسكن عامة الناس وفقرائهم وأثريائهم. وكان أهم الأزقة

---

(١) كان بالفسطاط «زقاق ابن الخشن، وكان من جملة الفرس، توفى سنة ٣٧٨ هـ»، انظر: ابن دقماق: الانتصار، ج ٤، ص ٢٣.

(٢) ذكر ابن دقماق، نفس المرجع ص ٥١، أنه كان بالفسطاط «سقيفة ابن بنه بالحمراء، وكان ابن هذا صاحب لواء الحمراء زمن الفتح، ونسبت هذه السقيفة إليه واسمه عبد الرحمن، وكان من الروم، وحضر أبوه أيضًا الفتح».

(٣) ابن دقماق، نفس المرجع، ص ٧.

(٤) ابن دقماق، نفس المرجع، ص ٨، ١٤.

(٥) نقل السيوطى: حسن المحاضرة، ج ١، ص ٧٢- ١٠٤ مختصرًا لكتاب الربيع الجيزى المسمى «السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة».

(٦) ابن دقماق، نفس المرجع، ج ٤، ص١٠.

(٧) نفس المرجع، ص ١١.

(٨) نفس المرجع، ص ١١.

وأكثرها وأعمرها قديمًا زقاق القناديل، لأنه - كما تذكر المراجع - «كان منازل الأشراف وكان على أبوابهم القناديل»[1] وكانت به دار عمرو بن العاص.

وكان درب القصطلانى «سكن جماعة من الأكابر[2]، ودرب المعاصر «سكن به أكابر أعيان المصريين»[3].

وزقاق البواقيل «سكنه جماعة أكابر علماء منهم القرطبى وابن الرفعة وقاضى القضاة تقى الدين بن درش»[4]. وزقاق ابن جمح «سكنه جماعة من السادات والعلماء»[5] وخوخة باسم الله «سكن داخلها جماعة رؤساء»[6] وخوخة السراج سكنها «جماعة من الأعيان وجماعة من الأخيار»[7].

أما خوخة سوسو فكانت «سكن عوام مصر[8].

وكذلك «عقبات كوم ابن غراب» «كانت سكن أوباش العوام»[9].

كما كان «قوم الشقاف بخراب المدينة» يسكنه «عوام الناس»[10].

وهذه قسمة طبيعية تقتضيها طبيعة المجتمع فى كل مدينة.

غير أنا نلاحظ أن السكان لم يستمروا دائمًا عربًا، فقد سكن المدينة بمرور الزمن أجناس مختلفة حتى أصبحت كالقاهرة أو الإسكندرية اليوم تموج بأخلاط الناس من كل جنس، وهذا وضع توجيه طبيعة البلد كعاصمة أولاً وكمدينة صناعية تجارية ثانيًا.

فكان فى المدينة بعد نموها:

- «زقاق مسجد القبة بقصر الشمع.. وسكنه جماعة من أعيان القبط»[11].
- ودرب السلسلة وكان يسكن به جماعة من أكابر القبط»[12].

---

(١) نفس المرجع والجزء، ص ١٣.
(٢) ابن دقماق. نفس المرجع والجزء، ص ٢١.
(٣) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ٢٦.
(٤) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ٢٦.
(٥) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ١٥.
(٦) ابن دقماق. نفس المرجع والجزء، ص ٣١.
(٧) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ٣٢.
(٨) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ٣٠.
(٩) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ٥٢.
(١٠) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ٥٣.
(١١) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ١٦.
(١٢) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ٢٦.

– وكان بالمدينة «زقاق اليهود.. وكان بصدره كنيسة لليهود قريبة من قصر الشمع»[1].

– كما كان بها أيضًا دار رئيس اليهود – أى حاخامهم – وسويقة لليهود ومجزرة خاصة بهم[2].

– وسقيفة خلف المنجم.. وعرفت بخلف اليهودى المنجم، لأنه أقام بجوارها فى حانوت ينجم ما يزيد على أربعين سنة إلى أن هلك»[3].

– و «سقيفة ابن الغارق.. يعلوها ملك ابن الغارق اليهودى المتطبب، وهى أمام دار رئيس اليهود»[4].

كذلك كانت الفسطاط كعبة التجار من مختلف الأجناس، وسكنها طوائف منهم، وكانت كل طائفة من جنس واحد تختار لها حيًا خاصًا بها.

فكان بالفسطاط «حارة الهنود، وعرفت بسكن الهنود»[5].

وزقاق المغاربة[6]، وسوق المغاربة[7]، وسويقة المغاربة[8].

وزقاق الأكراد وعرف بسكن الأكراد[9].

وسويقة العراقيين[10].

وفندق عمارة، وكان ينزله الشاميون[11].

ودرب الزيتون..وهو سكن الشاميين والمشارقة[12].

وهكذا نمت المدينة وكبرت أسواقها وسويقاتها وقيسارياتها وفنادقها، وتعددت حواريها ودروبها وأزقتها، وكثرت مصانعها ومطابخها ومتاجرها، وعلت مبانيها وأصبحت تبنى من الآجر والحجر بعد أن كانت تبنى من اللبن، وسكنتها إلى جانب المصريين أجناس كثيرة مختلفة.

---

(١) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ١٥.

(٢) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ٢٥.

(٣) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ٤٩.

(٤) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ٤٩.

(٥) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ١٣.

(٦) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ١٥.

(٧) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ٥٣.

(٨) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ٢٦ و ٣٢.

(٩) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ٢٠.

(١٠) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ٣٤.

(١١) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ٤٠.

(١٢) ابن دقماق: نفس المرجع والجزء، ص ٢٧.

ولكن المؤرخين مع عنايتهم الكبيرة بوصف الفسطاط وغيرها من المدن الإسلامية لم يعنوا أبدًا بإحصاء سكان أى مدينة، ولكننا نستطيع أن نتلمس الشواهد لنصل إلى تقرير بعض الإحصاءات التى قد تعيننا على معرفة تقريبية لعدد السكان بعد نمو المدينة وازدحامها. فالمقريزى يذكر أنه كان بالفسطاط دار تسمى دار عبد العزيز، كان يصب لمن بها فى كل يوم أربعمائة راوية ماء، وحسبك من دار واحدة يحتاج أهلها فى كل يوم إلى هذا القدر من الماء[1]، وكان فى هذه الدار خمسة مساجد وحمامان وعدة أفران يخبز بها عجين أهلها[2].

وذكر أيضًا - نقلاً عن ابن المتوج - أن عدد الأسطال التى كانت بالطاقات المطلة على النيل ستة عشر ألف سطل مؤبدة ببكر وأطناب، بها ترخى وتملأ.

وقال أيضًا - نقلاً عن ابن المتوج - الذى يقول: أخبرنى من أثق به أنه كان «بالفسطاط فى جهته الشرقية حمام من بناء الروم عامرة زمن أحمد بن طولون.. دخلتها فى زمن خمارويه بن أحمد بن طولون وطلبت بها صانعًا يخدمنى، فلم أجد فيها صانعًا متفرغًا لخدمتى، وقيل لى: إن كل صانع معه اثنان يخدمهم وثلاثة، فسألت كم فيها من صانع؟ فأخبرت أن بها سبعين صانعًا قل من معه دون ثلاثة، سوى من قضى حاجته وخرج.. فخرجت ولم أدخلها لعدم من يخدمنى بها، ثم طفت غيرها فلم أقدر على من أجده فارغًا إلا بعد أربع حمامات، وكان الذى خدمنى فيها نائبًا..»[3].

وذكر القضاعى أنه كان بالفسطاط: «من المساجد ستة وثلاثون ألف مسجد، وثمانية آلاف شارع مسلوك، وألف ومائة وسبعون حمامًا، وأن حمام جنادة - فى القرافة - ما كان يتوصل إليها إلا بعد عناء من الزحام»[4]. ويعقب المقريزى على هذا بقوله: «فانظر - رحمك الله - تعرف من ذلك كثرة ما كان بمصر من الناس»[5].

---

(١) المقريزى الخطط، ج ٢ ، ص ١٣١ و ١٣٥.

(٢) المقريزى الخطط، ج ٢ ، ص ١٣١ و ١٥٢.

(٣) المقريزى الخطط، ج ٢ ، ص ١٣١.

(٤) المقريزى: الخطط، ص ٢٩ و ١٣١.

(٥) المقريزى: الخطط، ص ٢٩ و ١٣١.

الباب الثانى

تكوين الشعب المصرى الجديد

بعد الفتح العربى

تكوين الشعب المصرى الجديد
بعد الفتح العربى

كان الجيش العربى الذى قام بفتح مصر يتكون من نحو اثنى عشر ألف مقاتل من القبائل العربية المختلفة، وبعد الفتح ظل العرب يرحلون إلى مصر فى أفواج كثيرة متتابعة، كان أكبرها هجرة قبائل من قيس فى سنة ١٠٩ هـ فى خلافة هشام بن عبد الملك وولاية الوليد بن رفاعة على مصر.

ويبدو أن هجرة هذه القبائل من قيس كانت تتصل بالسياسة العامة لهشام فى الدولة كلها، إذ كان هشام يرمى إلى إضعاف شأن القبائل اليمنية بالإعلاء من مركز القيسية، يقول الكندى إن عبيد الله بن الحبحاب لما ولى خراج مصر من قبل هشام كتب إليه يقول:

«إن أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - قد شرف هذا الحى من قيس ونعشهم ورفع من ذكرهم، وإنى قدمت مصر أر لهم فيها حظًا إلا أبياتًا من فهم، ومنها كور ليس فيها أحد، وليس يضر بأهلها نزولهم معهم، ولا يكسر ذلك خراجًا، وهى ببلبيس، فإن رأى أمير المؤمنين أن ينزلها هذا الحى من قيس فليفعل، فكتب إليه هشام: أنت وذلك»[١].

ثم يذكر الكندى بعد ذلك أن هشامًا أرسل إلى البادية فاستقدم أربعمائة أهل بيت من بطون قيس المختلفة وأوفدها إلى مصر، فنزلت بالحوف الشرقى حول بلبيس.

«وأمرهم بالزرع، ونظر إلى الصدقة من العشر فصرفها إليهم، فاشتروا إبلاً، فكانوا يحملون الطعام إلى القلزم، وكان الرجل يصيب فى الشهر العشرة دنانير وأكثر وأقل، ثم أمرهم باشتراء الخيول، فجعل الرجل يشترى المهر، فلا يمكث إلا شهرًا حتى يركب، وليس عليهم مؤونة فى أعلاف إبلهم ولا خيلهم لجودة مرعاهم. فلما بلغ ذلك عامة قومهم، تحمل إليهم خمسمائة أهل بيت من البادية، فكانوا على مثل ذلك، فأقاموا سنة، فأتاهم نحو خمسماية أهل بيت، فمات هشام وببلبيس ألف وخمسماية أهل بيت من قيس[٢].

واستمر توافد قيس على مصر ونزولهم بأرضها طوال الفترة الباقية من عصر بنى أمية، وانتهى عهد الدولة بموت مروان بن محمد بمصر:

«ثلاثة آلاف أهل بيت، ثم توالدوا، وقدم عليهم من البادية من قدم»[٣].

---

(١) الكندى: الولاة والقضاة، طبعة جست، ص ٧٦.

(٢) الكندى: المرجع السابق، ص ٧٧، وانظر المقريزى. الخطط، مطبعة النيل، ج ١، ص ١٢٨.

(٣) الكندى: ص ٧٧.

واستمرت رحلة القبائل العربية وهجرتهم متتابعة متلاحقة فى العصور التالية، وخاصة فى عصر الدولة الفاطمية. ففى خلافة المستنصر مثلاً عظم شان القبائل العربية النازلة فى جنوب الشام حول غزة، وكثرت ثوراتهم واشتدت وطأتهم على الولاة.

«فبعثت الوزير الناصر للدين أبو محمد الحسن بن على اليازورى إليهم فى سنة ٤٤٢ هـ يستدعيهم،وأقطعهم البحيرة.. فاتسعت أحوالهم، وفخم أمرهم، وعظم شأنهم..»[١].

ووفدت فى نفس العهد قبائل أخرى، غير أنها ما لبثت أن قامت ببعض الشغب والثورات، فنقلت الدولة بعض هذه القبائل - وخاصة قبيلتى بنى سليم وبنى هلال - إلى الوجه القبلى.وبعد قليل عمل الوزير اليازورى على نقل بنى هلال إلى شمال إفريقية لدأبهم على إثارة الشغب، ورغبة منه فى الانتقام من بنى زيرى الذين خرجوا عن طاعة الفاطميين فى إفريقية.

وقدمت قبائل أخرى فى خلافة الفائز الفاطمى ووزارة الصالح طلائع بن رزيك، ونزلت فى منطقة دمياط والبرلس، ونزلت بطون من قبيلة جذام فى منطقة زفتى وميت غمر.

من هذا البيان الموجز يتضح أن الهجرات العربية الأولى استقرت فى جهات أسفل الأرض (الوجه البحرى)، فلما ضاقت هذه البلاد بسكانها نزلت القبائل العربية الوافدة ببلاد الصعيد، وانتشرت فى جميع نواحيه حول أسوان وجنوبها، وفى منفلوط وأسيوط والأشمونين وإخميم، وفى الصحراء الشرقية بين النيل والبحر الأحمر، وخاصة صحراء عيذاب.

وكان العرب فى أول أمرهم جنوداً يقومون بالفتوح فى الأقاليم المجاورة أو بالدفاع عن مصر، وكانت منازلهم فى العاصمة (الفسطاط) أو فى الثغور كدمياط وتنيس ورشيد والإسكندرية، أو على الحدود فى الصحراء. فلما كثر عددهم وتوالت هجراتهم، اشتغلوا أيضًا بالرعى على حافتى الوادى. ثم لم تلبث أن اجتذبتهم الحياة فى وادى النيل نفسه، فأقبلوا عليه، واشتغلوا بالزراعة، واختلطوا بالأهلين. وظلت للعرب هذه الصفة - صفة الرعى أو الجندية - حتى كان عهد الخليفة العباسى المعتصم، وكانت أمه تركية، فاستكثر من الجند الأتراك فى عاصمة الدولة، ثم لم يلبث أن أرسل إلى كيدر نصر بن عبد الله واليه على مصر (٢١٧هـ - ٢١٩ هـ).

«وأمره بإسقاط من فى ديوان مصر من العرب وقطع أعطياتهم، ففعل ذلك..»[٢].

ومنذ ذلك الحين أصبح جند مصر من العجم والموالى. ولما ولى أحمد بن طولون على مصر استكثر من العبيد فى جيشه حتى بلغت عدة جنده زيادة على أربعة وعشرين ألف غلام تركى، وأربعين ألف أسود وسبعة آلاف حر مرتزق.

---

(١) المقريزى: البيان والإعراب عمن نزل بأرض مصر من الأعراب، ص ٢٤ - ٢٥.

(٢) الكندى: المرجع السابق، ص ١٩٣؛ والمقريزى: الخطط، ج ١، ص ١٥١.

وبإسقاط العرب من ديوان الجند ومنع عطائهم انتشروا فى أنحاء مصر وتم اختلاطهم بالأهالى.

* * *

أما الأقباط فقد كانوا أكثرية وقت الفتح. يقول المقريزى:

«إعلم أن أرض مصر لما دخلها المسلمون كانت بأجمعها مشحونة بالنصارى وهم على قسمين متباينين فى أجناسهم وعقائدهم: أحدهما أهل الدولة، وكلهم روم من جند صاحب القسطنطينية ملك الروم، ورأيهم وديانتهم بأجمعهم ديانة الملكية. وكانت عدتهم تزيد على ثلاثمائة ألف رومى. والقسم الآخر عامة أهل مصر، ويقال لهم القبط، وأنسابهم مختلطة. لا يكاد يتميز منهم القبطى من الحبشى من النوبى من الإسرائيلى الأصل، من غيره، وكلهم يعاقبة. فمنهم كتاب المملكة، ومنهم أهل الفلاحة والزرع، ومنهم أهل الخدمة والمهنة، وبينهم وبين الملكية - أهل الدولة - من العداوة ما يمنع مناكحتهم، ويجب قتل بعضهم بعضًا»[1].

وقد دارت الحروب بين العرب والروم وقت الفتح، أما القبط فكانوا عونًا للعرب، وبعد الفتح كتب عمرو أمانًا لبنيامين بطرك الأقباط، فخرج من مخبئه فى الصحراء، وعاد إلى كرسى بطركيته بعد أن غاب عنه ثلاثة عشرة سنة، واعتبر الأقباط أهل ذمة، وفرض على كل من بلغ الحلم دينارانِ[2] ويستثنى من هذه الضريبة النساء والصبية والشيوخ.

وظل الأقباط يدفعون هذه الضريبة دون أى شكوى نحو قرن من الزمان، فلما فكر بعض ولاة مصر فى زيادة مقدار الضريبة ولو بزيادة طفيفة كان الأقباط يقومون بثورات مختلفة، وكان الولاة يضطرون إلى العمل على إخماد هذه الثورات بالقوة والعنف.

١ ففى سنة ١٠٥ هـ كان الوالى على مصر من قبل الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك هو الحر بن يوسف، وكان عامل الخراج هو عبيد الله بن الحبحاب، فكتب إلى هشام أن أرض مصر تحتمل الزيادة، فزاد على كل دينار قيراطًا، فانتقضت بعض كور مصر (كورة تنو، وتمى، وقربيط، وطرابية) وعامة الحوف الشرقى، فبعث إليهم الحر بن يوسف بأهل الديوان (أى بالجند من العرب) فأخضعوا الفتنة بعد قتل عدد كبير من الثائرين، وكان هذا الانتقاض فى سنة ١٠٧هـ، وهو أول انتفاض للقبط[3] بعد الفتح العربى.

وواضح مما ذكر أن الزيادة كانت فى ضريبة الأرض لا ضريبة الرؤوس (أى الجزية)، وأنها كانت زيادة طفيفة تبلغ قيراطًا على كل دينار، وقد تكون دعت إليها حاجة البلد، كما أن

---

(١) المقريزى: الخطط، ج ٤، ص ٢٩٣

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، ص ٨٧

(٣) الكندى: الولاة والقضاة، ص ٧٣ - ٧٤. والمقريزى: الخطط، ج ٤، ص ٣٩٤.

عامل الخراج ذكر للخليفة أن الأرض تحتمل هذه الزيادة، ومع هذا فقد ثار القبط فى بعض الكور وفى الحوف الشرقى، لأن المسائل المالية كانت دائمًا - فى كل العصور وفى كل البلاد - مسائل حساسة تثير شعور الشعوب.

٢ - وكانت فتنة القبط الثانية جزئية كذلك فى بعض بلاد الصعيد، وذلك فى سنة ١٢١ هـ فى ولاية حنظلة بن صفوان الثانية على مصر من قبل هشام بن عبد الملك، يقول الكندى:

«ثم انتقض أهل الصعيد، وحارب القبط عمالهم فى سنة إحدى وعشرين ومائة، فبعث حنظلة بأهل الديوان، فقتلوا من القبط ناسًا كثيرًا واظفر بهم»[١].

ولكن الكندى لم يذكر سبب هذه الفتنة، وإن كان المقريزى قد ذكر أن حنظلة عندما أتى مصر واليًا للمرة الثانية تشدد على النصارى، وزاد فى الخراج، وأحصى الناس والبهائم، وجعل على كل نصرانى وسما - صورة أسد - وتتبعهم، فمن وجده بغير وسم قطع يده، فقد تكون هذه السياسة هى السبب فى قيام هذه الفتنة.

٣ - وفى سنة ١٣٢ هـ عندما هزم مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية أمام جيوش العباسيين، فر إلى مصر، وفى مدة وجوده بها ثار بعض القبط بمدينة رشيد، فبعث إليهم مروان بعثمان بن أبى نسعة فهزمهم[٢]. ولسنا نعرف أيضًا سبب هذه الفتنة، وقد يكون أقباط رشيد انتهزوا فرصة الفوضى التى صاحبت زوال دولة بنى أمية وقيام الدولة الجديدة فقاموا بهذه الفتنة.

٤ - وفى سنة ١٣٥ هـ فى ولاية أبى عون من قبل العباسيين:

«خرج أبو مينا القبطى بسمنود. فبعث إليه (أبو عون) بعبد الرحمن بن عتبة فقتل أبو مينا»[٣].

وليس فى المراجع تعريف بشخصية أبى مينا هذا، ولا ذكر لأسباب خروجه.

٥ - وفى سنة ١٥٠ هـ فى ولاية يزيد بن حاتم على مصر (١٤٤هـ - ١٥٢هـ) من قبل الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور، خرج القبط بمدينة سخا، وانضم إليهم أهالى البلاد المجاورة، فأرسل إليهم يزيد فرقة من أهل الديوان. ولكن يبدو أن هذه الفتنة كانت قوية وخطرة. فقد قتل فى المعركة بعض قواد العرب وجرح البعض الآخر، وانصرف الجيش إلى الفسطاط منهزمين[٤]..

---

(١) الكندى: الولاة والقضاة، ص ٨.

(٢) المرجع السابق، ص ٩٦.

(٣) المرجع السابق، ص ١٠٢.

(٤) المرجع السابق، ص ١١٦ - ١١٧.

٦ – وفى سنة ١٥٦ هـ فى ولاية موسى بن على على مصر من قبل أبى جعفر المنصور خرجت القبط ببلهيب، فأرسل إليهم الوالى جندًا هزموهم.

٧ – وفى سنة ٢١٦ هـ فى ولاية عيسى بن منصور على مصر من قبل الخليفة المأمون، ثار سكان أسفل الأرض (الوجه البحرى) – عربًا وقبطًا – وكان سبب هذه الثورة – كما يذكر الكندى – «سوء سيرة العمال فيهم»[١] وبذل الوالى عيسى بن منصور، والقائد العباسى الأفشين جهدهما لإخضاع هذه الثورة التى ظلت قائمة نحو ثمانية شهور – من جمادى الأولى إلى ذى الحجة من سنة ٢١٦ هـ – حتى اضطر الخليفة المأمون أن يأتى إلى مصر بنفسه لإخضاع هذه الثورة، وأخضعها وعاقب كلاً من الحاكم والمحكومين بما يستحق، أما الوالى عيسى بن منصور، فقد عزله المأمون بعد أن عنفه بقوله:

«لم يكن هذا الحدث العظيم إلا عن فعلك وفعل عمالك، حملتم الناس ما لا يطيقون وكتمتونى الخبر حتى تفاقم الأمر واضطربت البلد»[٢].

أما ابن عبيدس الفهرى قائد الثورة من العرب فقد فر إلى الصعيد، فظفر به وقتل. وأما الثائرون من الأقباط «فنزلوا على حكم أمير المؤمنين، فحكم بقتل الرجال وبيع النساء والأطفال، فبيعوا وسبى أكثرهم[٣].

يقول المقريزى:

«ومن حينئذ ذلت القبط فى جميع أرض مصر، ولم يقدر أحد منهم بعد ذلك على الخروج على السلطان، وغلبهم المسلمون على عامة القرى، فرجعوا عن المحاربة إلى المكايدة واستعمال المكر والحيلة ومكايدة المسلمين وعملوا كتاب الخراج. فكانت لهم وللمسلمين أخبار كثيرة..»[٤].

هذا موجز لأهم الثورات التى قام بها الأقباط فى القرنين الأول والثانى للهجرة، وقد أخضعت كلها بالقوة. وكان من أهم نتائجها جميعًا أن اعتنق عدد كبير من الأقباط الإسلام بعد كل ثورة – رغبة أو رهبة –.

وكان من الطبيعى – وهذه العوامل تعمل مجتمعة لإدماج الشعبين أحدهما فى الآخر – أن تنتشر اللغة العربية بين الأقباط ليمكن التفاهم بين الحاكم والمحكوم، وظل انتشار اللغة العربية بطيئًا طوال القرن الأول للهجرة، وقبيل نهاية هذا القرن، أى فى سنة ٨٧ هـ (٧٠٥م). وفى

---

(١) المرجع السابق، ص ١٩٠.

(٢) الكندى: الولاة والقضاة، ص ١٩٢.

(٣) الكندى: الولاة والقضاة، ص ١٩٢.

(٤) المقريزى: الخطط، ج ٤، ص ٣٩٦.

ولاية عبد الله بن عبد الملك على مصر من قبل أخيه الوليد بن عبد الملك أمر بالدواوين «فنسخت بالعربية، وكانت قبل ذلك تكتب بالقبطية»[1].

ففى القرن الأول للهجرة كانت أوراق الدواوين تكتب باللغة اليونانية، وكانت بعض الأوراق تكتب باللغتين العربية واليونانية ويرجع تاريخ أقدم ورقة مكتوب عليها بهاتين اللغتين إلى سنة ٢٢ هـ (٦٤٣م)، ويرجع تاريخ آخر ورقة إلى سنة ١٠١ هـ (٧١٩م)، كما يرجع تاريخ آخر ورقة بردية مكتوب عليها باليونانية فقط إلى سنة ١٦٤ هـ (٧٨٠م)، أما أقدم ورقة مكتوب عليها بالعربية فقط فتاريخها سنة ٩٠ هـ (٧٠٩م).

وظل هذا التحول من الكتابة باللغة اليونانية فى الدواوين والتحدث بالقبطية بين عامة الناس إلى الكتابة والتحدث باللغة العربية، ظل هذا التحول يتم بالتدرج خلال القرون الثلاثة الأولى للهجرة، حتى إذا كان القرن الرابع (١٠م) كانت غالبية الشعب المصرى يتكلمون العربية ولا يفهمون القبطية، بدليل أن رجال الكنيسة المصرية اضطروا فى هذا القرن أن يلقوا مواعظهم فى الكنائس باللغة العربية.

وليس معنى هذا أن اللغة القبطية تلاشت تماما، بل لقد ظلت موجودة، بدليل ما يذكره المقريزى من أن الخليفة المأمون كان يتنقل فى ريف مصر ومعه مترجم ينقل عنه وإليه، وما يذكره المقدسى فى كتابه «أحسن التقاسيم» (ألفه حوالى سنة ٣٧٥ هـ) من أن بعض مسيحيى مصر كانوا يتحدثون بالقبطية[2].

ولا يفوتنا أن نشير إلى أن بعض المسلمين تعلموا القبطية فى هذا العهد الأول - عهد الاختلاط - يذكر الكندى أن القاضى خير بن نعيم (ولى القضاء من ١٢٠هـ - ١٢٧ هـ) كان «يسمع كلام القبط بلغتهم، ويخاطبهم بها»[3] كما يذكر أن عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج، والى الشرطة على الفسطاط (سنة ١٤٤ هـ)، كان يتكلم القبطية[4].

وذكر البلوى فى كتابه «سيرة أحمد بن طولون» أن ابن طولون تغير على أحد رجاله، ففر منه، فأرسل ابن طولون أحد رجال دولته فى طلبه، وأوصاه أن لا يبحث عنه فى داره بالفسطاط ولا فى ضيعته، بل أمره أن يبحث عنه فى «الديارات وعند النصارى.. لأنه حاذق بالقبطية فصيح بها..»[5].

---

(١) الكندى: المرجع السابق، ص ٥٨ - ٥٩. وجاء فى دائرة المعارف الإسلامية مادة «ديوان» ومادة «قبط» أن الدواوين فى مصر كانت تكتب باليونانية لا بالقبطية

(٢) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص ٨.

(٣) الكندى: الولاة والقضاة، ص ٣٤٩.

(٤) نفس المرجع، ص ١١٣.

(٥) البلوى: سيرة أحمد بن طولون، نشر محمد كرد على، ص ١٣٠ - ١٣١.

ونستطيع الآن أن نلخص خطوات الاختلاط والتحول التى انتهت بتكوين الشعب المصرى فى العصر الإسلامى الأول فى النقط الآتية :

١ - امتاز القرن الأول للهجرة بكثرة الهجرات العربية المتتابعة، وكانت أكبر هذه الهجرات هجرة القبائل القيسية من سنة ١٠٩هـ إلى سنة ١٣٢هـ (أى من عهد هشام بن عبد الملك إلى عهد مروان بن محمد)، وقبيل نهاية هذا القرن أيضًا (فى سنة ٨٧هـ) كان تحويل الدواوين المصرية من اليونانية والقبطية إلى العربية.

٢ - ويمتاز القرن الثانى بثورات الأقباط المختلفة - (من سنة ١٠٥هـ إلى سنة ٢١٦هـ)، وكان من نتائج هذه الثورات دخول كثير من الأقباط فى الإسلام.

٣ - وفى القرن الثالث أسقط العرب من ديوان الجند، ومنعت أعطياتهم، فانتشروا فى القرى المصرية، واشتغلوا بالزراعة، وتزوجوا من المصريات.

ففى هذا القرن ثم امتزاج الشعبين.

٤ - ولم يكد يبدأ القرن الرابع حتى كان فى مصر شعب جديد - هو خليط من الشعبين العربى، والقبطى - يدين معظمه بالدين الإسلامى، ويتكلم السواد الأعظم منه - مسلمين وأقباطًا - باللغة العربية.

ونستطيع أخيرًا أن نفسر اندماج الأقباط فى العرب واعتناقهم الإسلام بالأسباب الآتية :

١ - يقول ابن خلدون: «المغلوب مولع دائمًا بتقليد الغالب» وهذه حقيقة ثابتة نشاهدها فى تاريخ الشعوب المختلفة، فليس من البعيد إذن أن يفكر بعض الأقباط فى اعتناق الدين الإسلامى - دين الدولة الحاكمة - وأن يتعلموا اللغة العربية - لغة الحكام - رغبة فى أن ترتفع مكانتهم، ويسهل اتصالهم برجال الدولة، ويتمتعوا بما يتمتع به المسلمون من مركز مرموق.

ولم يكتف نفر من الأقباط باعتناق الإسلام وتعلم اللغة العربية، بل تغالوا فأدعوا النسب العربى، وبذلوا المال الكثير لإثبات هذا النسب فى وثائق رسمية.

ذكر الكندى أن جماعة من القبط يسمون «أهل الحرس» سعوا لدى قاضى مصر عبد الرحمن ابن عبد الله العمرى (١٨٥هـ - ١٩٤هـ) ليسجل لهم سجلاً بإثبات أنسابهم، ودفعوا له ستة آلاف دينار، فرفع العمرى الأمر إلى الخليفة الرشيد، وسافر رجلان من «أهل الحرس» إلى بغداد، وأنفقا هناك مالاً كثيرًا، وادعوا أنهم ينتسبون إلى حوتكه بن أسلم بن الحاف بن قضاعة. وعند وصولهم إلى بغداد مات الرشيد، وولى الخلافة ابنه الأمين. فرفعوا إليه قضيتهم، وأيدهم فى دعواهم جماعة من أهل الحوف الشرقى وبادية الشام.

ثم عاد الوفد ومعهم كتاب الأمين إلى العمرى بالتسجيل لهم ففعل.

وقد ثار المجتمع العربى فى القسطاط لهذه القضية وأعلن عن غضبه على القاضى العمرى فى شعر كثير[1]، ينتقد فيه حكم هذا القاضى ويطعن فى قضاياه، ولم تهدأ ثائرتهم حتى عزل العمرى عن قضاء مصر، ووليه هشام بن أبى بكر البكرى (١٦٤هـ - ١٦٩ هـ) من قبل الأمين أيضًا.

وسافر وفد من العرب إلى بغداد للطعن فى حكم العمرى ونسبة «أهل الحرس» للعرب.

«فكتب محمد الأمين إلى البكرى بكتاب يذكر فيه أنه لا يمنح أحدًا من غير العرب اللحاق بالعرب، ويأمره أن يردهم إلى ما كانوا عليه من أنسابهم»[2].

فدعا البكرى «أهل الحرس» وطلب منهم سجل قضيتهم الذى أثبت فيه العمرى أنسابهم، ثم أخرج مقراضا من تحت مصلاه فقطع السجل به، وقال لهم:

«العرب لا تحتاج إلى كتاب من قاض. إن كنتم عربًا فليس ينازعهم أحد».

٢ - كان الأقباط يتولون وظائف الدولة الصغرى والكبرى فى المدن وفى القرى، غير أنهم أخذوا يدخلون فى الإسلام ويتعلمون اللغة العربية رويدًا رويدًا، وخاصة بعد صدور الأمر بتدوين الدواوين فى مصر باللغة العربية، وكان الدافع الأكبر لإقبالهم على اعتناق الإسلام وتعلم اللغة العربية رغبتهم فى الاحتفاظ بالوظائف التى يلونها. فقد روى ساويرس بن المقفع أن الخليفة عمر بن عبد العزيز (٩٩هـ - ١٠١ هـ) أرسل إلى مصر كتابًا يأمر فيه الأقباط بالتخلى عن وظائفهم ماداموا على دينهم، ومن أراد الاحتفاظ بعمله فليدخل فى دين محمد، ولهذا سلم الأقباط ما بأيديهم من الأعمال والوظائف إلى المسلمين[3].

ويؤكد هذه الرواية ما ذكره الكندى من أنه فى خلافة عمر بن عبد العزيز «نزعت موازيت القبط عن الكور، واستعمل المسلمون عليهم»[4].

ومن البديهى أن نستنتج أن عددًا كبيرًا من أقباط مصر قد دخلوا فى الإسلام وتعلموا اللغة العربية للاحتفاظ بوظائفهم أو للعودة إليها بعد تخليهم عنها.

ومع هذا فإنه يبدو أن تنفيذ هذا الأمر لم يكن عامًا، أو أنه لم يلتزم فيما تلا عصر عمر بن عبد العزيز من سنوات، بدليل أن الأقباط ظلوا يشغلون كثيرًا من وظائف الدولة، بل لقد ظل بعض الموزايت يختارون من الأقباط، فقد ذكر فى إحدى الأوراق البردية المحفوظة فى هيدلبرج، والمؤرخة بسنة ١٧١ هـ، اسم مازوت قبطى[5].

---

(١) انظر هذا الشعر وتفاصيل القضية فى (الكندى: الولاة والقضاة، ص ٣٩٧ - ٣٩٩).

(٢) الكندى: المرجع السابق، ص ٤١٣.

(٣) ساويرس بن المقفع: سير الآباء البطاركة، ج ٥، ص ٧١ - ٧٢.

(٤) الكندى: المرجع السابق، ص ٦٩

(٥) سيدة إسماعيل الكاشف. مصر فى فجر الإسلام، ص ٢٠١.

٣ - ما كان يحدث عقب كل ثورة من دخول كثير من الأقباط فى الإسلام - طوعًا أو كرهًا - وخاصة بعد الثورة الكبرى التى حدثت فى عهد المأمون.

٤ - اعتنق بعض الأقباط الإسلام فرارًا من الضرائب التى كانت مفروضة عليهم، وقد يؤيد هذا أن أول انتقاض للقبط فى العهد الإسلامى (سنة ١٠٥ هـ) كان لأن عامل الخراج زاد على كل دينار قيراطًا.

ولم يكد ينتهى القرن الأول للهجرة حتى أحس والى مصر ما لكثرة دخول الأقباط فى الإسلام من أثر فى نقص قيمة الخراج. فلما ولى الخلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩هـ - ١٠١ هـ) كتب إليه عامله على مصر أيوب بن شر حبيل يشكو كثرة دخول الناس فى الإسلام، ويذكر له ما لهذا التحول من أثر فى نقص قيمة الخراج، ثم استأذنه فى فرض الجزية على من أسلم، فرد عليه عمر رده المشهور:

«قبح الله رأيك، إن الله إنما بعث محمدًا هاديًا ولم يبعثه جابيًا، فضع الجزية عمن أسلم، ولعمرى لعمر أشقى من أن أجل الناس كلهم فى الإسلام على يديه.

٥ - وهناك سبب أخير قد يكون له من القوة ما يفوق الأسباب السالفة مجتمعة، وذلك أن دخول الأقباط فى الإسلام كان دخولاً طبيعيًا، يسير مع التطور المنطقى للحوادث وللتاريخ فى مصر بعد الفتح العربى، وأن الدين الإسلامى ببساطته وبساطة تعاليمه وعقائده قد جذب هؤلاء الأقباط إليه. يقول بهذا الرأى شاهد من الديانة المسيحية، هو المؤرخ والمستشرق الإنجليزى المعروف «سيرتوماس أرنولد» فقد قال فى كتابه «الدعوة إلى الإسلام».

«الحق أن كثيرًا من مسيحيى مصر تركوا النصرانية بمثل هذه السهولة وتلك السرعة التى اعتنقوا بها النصرانية فى مستهل القرن الرابع الميلادى.. كما أن سرعة انتشار الإسلام فى الأيام الأولى من الاحتلال العربى قد تكون راجعة إلى عجز ديانة كالديانة المسيحية وعدم صلاحيتها للبقاء، أكثر من أن تكون راجعة إلى الجهود الظاهرة التى قام بها الفاتحون لجذب الأهلين إلى الإسلام.

وإن الأساس اللاهوتى لبقاء اليعقوبيين حزبًا منفصلاً، والشعائر التى جاهدوا فى سبيل الاحتفاظ بها وقتًا طويلاً، ودفعوا ثمنًا غاليًا فى هذا السبيل، قد اجتمعت فى عقائد كانت صيغتها أشد ما تكون غموضًا وإبهامًا من الناحية الميتافيزيقية، ولا شك أن كثيرًا من هؤلاء قد تحولوا وقد أخذت الحيرة منهم كل ما أخذ، واستولى على نفوسهم الضجر والأعياء من ذلك الجدل السقيم الذى احتدم حولهم - إلى عقيدة تتلخص فى وحدانية الله البسيطة الواضحة ورسالة نبيه محمد»[1].

---

(١) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام (الترجمة العربية للدكتور حسن إبراهيم وزميليه)، ص ٩٣ - ٩٤.

البـاب الثالث

الحياة الاقتصادية
فى العاصمة الجديدة الفسطاط

(أ) التجـارة .

(ب) الصناعة .

الحيـــاة الاقتصادية
فى الفسطاط

(أ) التجارة :

كان من أهم ما تمتاز به الفسطاط - كما أسلفنا - موقعـها علـى النيـل ، فإنـه يسـر للأهلـين سبل الحصول على الماء ، وقد عرفنا كيف خدمت الضواحـى العسـكرية المدينـة فتركتـها تنمـو وتكبر وتزدهر بعيدة عن حروب ومشاكل الجند ونزاع الطوائف .

وقد ساعدت زيادة عدد السكان المضطردة على أن تكثر بالمدينة الأسواق ، وترد إليها جميـع أصناف التجارة من الجنوب والشمال والشرق والغرب ، وذلك بحكم مركزها كعاصمة ، وبحكـم موقعها الممتاز على رأس الدلتا ؛ إذ ينتهى إليها النيـل منحـدرًا مـن الصعيـد ، ثـم يتفـرع مـن شماليها ليتصل بشرق الدلتا وغربها ، ثم ينتهى إلى البحر الأبيض المتوسـط ، كمـا كـان خليـج أمير المؤمنين يصل بين الفسطاط والبحر الأحمر .

لهذا لا نعجب إذا قرأنا وصف المقدسى (توفى ٣٨٧هـ) لمدينة الفسطاط إذ يقول :

(فهو مصر مصر ، وناسخ بغـداد ، ومفخـر الإسـلام ، ومتجـر الأنـام ؛ وأجمـل مـن مدينـة السلام ، خزانة المغرب ، ومطرح المشرق ، عامر المرسم ، ليس فـى الأمصـار آهـل منـه ، كثـير الأجلة والمشايخ ، عجيب المتاجر والخصائص ، حسن الأسواق والمعايش .. به أطعمـة لطيفـة ، وإدامات نظيفة ، وحلاوات رخيصة ، كثير الموز والرطب ؛ غزير البقول والحطب ..

وكنت يومًا أمشى على الساحل ، وأتعجب من كـثرة المراكـب الراسية والسـائرة ، فقـال لى رجل منهم : من أين أنت؟ قلت : من بيت المقدس ؛ قال : بلـد كبـيرًا ، أعلمـك يـا سـيدى - أعـزك الله - أن علـى هـذا السـاحل ، ومـا قـد أقلـع منـه إلى البلـدان والقـرى ، مـن المراكـب ما لو ذهبت إلى بلدك لحملت أهلها وآلاتها وحجارتها وخشبها حتى يقال هنا مدينة)[1] .

وقال السيوطى - نقلاً عن الكندى :

(وكل كورة من كور مصر مدينة قال تعالى : ﴿ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴾[2]، وفى كل مدينة منها آثار عجيبة من الأبنية والصخور والرخام والبرابى . وتلك المدن كلـها تؤتـى فـى المـاء مـن السفن تحمل المتاع والآلة إلى الفسطاط ، تحمل السفينة الواحدة ما يحمله خمسمائة بعير)[3] .

---

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ليدن ١٨٧٧م، ص ١٩٧-١٩٨.

(٢) سورة الشعراء الآية : ٣٦.

(٣) السيوطى . حسن المحاضرة ، جـ ٢ ، ص ١٧٢ .

وهذه الأوصاف تصور لنا كيف كانت الفسطاط مجمع التجارة الواردة من الشمال والجنوب عن طريق النيل ، فإن هذا الأسطول الكبير من السفن النيلية كان يصعد جنوبًا وينحدر شمالاً ، ثم يعود إلى الفسطاط محملاً بجميع أصناف التجارة والمصنوعات .

كذلك كانت تنتهى إلى الفسطاط التجارة الواردة من بلدان الشرق ، كبلاد العرب والهند والصين . فإنها كانت تلتقى مع التجارة الوافدة من جنوب أفريقيا وأواسطها ، وتصلان إلى مصر عن طريق القلزم وخليج أمير المؤمنين ، أو عن طريق عيذاب - قوص قفط قنا - ثم تحملها الدواب أو السفن حتى تصل إلى الفسطاط .

وكذلك كانت التجارة الوافدة من ممالك أوربا ومن آسيا الصغرى والشام وجزر البحر الأبيض المتوسط كانت تصل إلى موانئ مصر الشمالية ، ثم تنقل بواسطة القوافل أو السفن إلى الفسطاط ، يقول ابن سعيد (توفى سنة ٦٧٣هـ) . (وساحل النيل كثير العمارة بالمراكب وأصناف الأرزاق التى تصل من جميع أقطار الأرض والنيل ، ولئن قلت بأنى لم أبصر على نهر ما أبصرته على ذلك الساحل فإنى أقول حقًا)[١] .

ثم يقول أيضًا : (وأما ما يرد على الفسطاط من البحر الإسكندرانى والبحر الحجازى فإنه فوق ما يوصف ، وبها مجمع ذلك لا بالقاهرة ، ومنها تجهز إلى القاهرة وسائر البلاد ..)[٢] .

وكانت المدينة بعد تخطيطها ونموها قد كثرت حاراتها وأزقتها ودروبها وشوارعها، وسميت هذه جميعًا بأسماء أصحاب الحرف من التجار أو الصناع ، فكان فيها :

سوق العداسين ، وسوق الشوايين ، وسوق السماكين ، وسوق الصيادين ، وسوق العلافين، وسوق القشاشين، وسوق الزياتين ، وسوق التمر ، وسوق الرقيق .

وكان بها زقاق العسل ، وزقاق السمسم ، وزقاق المسك .

وكان بها رحبة الخروب لأنها مرسومة ببيعه .

وكان بها درب البقالين ، ودرب الديباج .

وقد ذكر ابن دقماق أنه كان بها - فى عصره - ثمانية أسواق ، وخمس عشرة سويقة[٣]، ويبدو من وصفه أن أسواق المدينة كانت عامرة آهلة ، فإنه يقول عن (سويقة دار النحاس) . (كانت من أقل أسواق مصر ، ولم يكن بها أكثر من أحد عشر حانوتًا)[٤] .

---

(١) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٤٨ .

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ١٤١ ؛ وانظر أيضًا ابن دقماق ، الانتصار ، الجزء الرابع ، الفصول الخاصة بالأسواق والرحاب والأزقة والدروب .

(٣) ابن دقماق : الانتصار ، جـ ٤ ، ص ٣٢ - ٣٤ .

(٤) ابن دقماق : الانتصار ، جـ ٤ ، ص ٣٣ .

وكان بالفسطاط على عهد ابن دقماق (القرن ٩ هـ = ١٥ م) خمس عشرة قيسارية ، منها : (قيسارية المحلى .. وليس بها حانوت خال ، وكان يباع بها سائر أنواع الصوف والخيش والشعر وغيره ، وكانت تنزل إليها فى أيام أسواق مصر تجار القاهرة للبيع والشراء بها ..)[١] .

و (قيسارية الصبانة .. كانت جميعها مسكونة داخلها وظاهرها ، وأزقة أبوابها ليس فيها حانوت خال ، وكان بسوط فرجتها الغربية مساطب برسم الخياطين ، ولهم مقاعد بأجناب)[٢] .

و (قيسارية شبل الدولة .. وكانت معروفة بأقمشة النساء ..)[٣] .

و (قيسارية ورثة الظاهر .. وكانت معروفة ببيع القماش الشامى ..)[٤] .

و (قيسارية ابن ميسر الكبرى .. مرسومة لبيع الخام البلدى والمجلوب ..)[٥] .

و (قيسارية أبى مرة .. قال القضاعى : وفى جمادى الآخرة من سنة ٣٧٨هـ نقل باعة الجمع والحرير إلى هذه القيسارية)[٦] .

و (قيسارية ابن ميسر الصغرى .. وكان يباع بها الصناديق وماشابهها)[٧] .

و (قياسرية الأنماط القديمة . وسكنها أصحاب الأنماط فى سنة ٣٤٧)[٨] .

والأنماط هى (الستور التى توضع على الهوادج فوق الجمال أثناء السفر ، وأغطية السروج[٩] - .

ثم ذكر ابن دقماق أنه كان بالفسطاط على أيامه ستة عشر[١٠] فندقاً لبيع أصناف الفواكه والخضر وأنواع التجارة والمصنوعات ، والفندق كلمة من أصل يونانى[١١] Pandokeion وهو مكان تخزن البضائع وتعرض فى أسفله ، وينام التجار فى أعلاه ، وكانت الفنادق فى الغالب ملجأ التجار الأجانب، وكان من هذه الفنادق بالفسطاط :

---

(١) ابن دقماق : الانتصار ، جـ ٤ ، ص ٣٧ – ٣٨ .

(٢) ابن دقماق : الانتصار ، جـ ٤ ، ص ٣٨ .

(٣) نفس المرجع السابق ، ص ٣٨ .

(٤) ابن دقماق : الانتصار ، جـ ٤ ، ص ٣٨ .

(٥) ابن دقماق : الانتصار ، جـ ٤ ، ص ٣٨ .

(٦) نفس المرجع ، ص ٣٩ .

(٧) نفس المرجع ، ص ٣٨ .

(٨) نفس المرجع ، ص ٣٩ – ٤٠ .

(٩) انظر ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ ٤ ، ص ٣٨ ، هامش ٢.

(١٠) ابن دقماق ، ص ٤٠ – ٤١ .

(١١) انظر : متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع ، جـ ٢ ، ص ٣٢٧ .

فندق دار الخضر ، وفندق العسل ، وفندق البلاط ، وفندق السدر ، وفندق الدقيق، وفندق دار التفاح وفندق القصب ، وفندق الحصر، «ويباع به الحصر الرفيعة والحصر القطبان المجلوبان من الفيوم ، ويباع به أيضا الرطب الأمهات والزيتون الأخضر» ، وفندق الكارم ، وفندق الصبانين (وبظاهره حوانيت الصبانين) .

ويقول المقريزى - نقلاً عن ابن المتوج - إن رجلاً من كبار الصالحين قال : (عددت من مسجد عبد الله إلى جامع ابن طولون ثلاثمائة وتسعين قدر حمص مصلوق بقصبة هذا السوق بالأرض، سوى المقاعد والحوانيت التى بها الحمص، فتأمل - أعزك الله - ما فى هذا الخبر مما يدل على عظمة مصر ، فإن هذا السوق كان خارج مدينة الفسطاط .. ومن المعروف أن الأسواق التى تكون بداخل المدينة أعظم من الأسواق التى هى خارجها ، ومع هذا ففى هذا السوق من صنف واحد من المآكل هذا القدر ، فكم ترى تكون جملة ما فيه من سائر أصناف المآكل، وقد كان إذ ذاك بمصر عشرة أسواق كلها أو أكثرها أجل من هذا السوق)[1] .

ويصف ابن حوقل الفسطاط بأنها (ذات رحاب فى محالها ، وأسواق عظام ، ومتاجر فخام)[2] .

ويروى ناصر خسرو أن البقالين والعطارين وبائعى الخردة كانوا يعطون الشارى الأوانى الزجاجية والورق ليضع فيها ما يبتاع)[3] .

(ب) الصناعة :

ذكرنا أن الدروب والرحاب والخوخ والأسواق فى مدينة الفسطاط سميت بأسماء التجار ، وكذلك أطلق على بعضها أسماء أصحاب المهن والحرف والصناعات المختلفة ، فكان بها : سوق السراجين ، وسوق الوراقين ، وسوق الأساكفة ، وسوق الخبازين .

وكان بها زقاق القفاصين ، وزقاق الرزازين ، (وبه صف مخازن مدقات الأرز) .

وكان بها درب الفواخير ، ودرب النجارين ، ودرب الحدادين ، ودرب الحبالين ، ودرب الحجارين .

وكان بها كذلك خوخة الرفايين (وهى سكن رفايين القماش)[4] .

يقول ابن سعيد : (وبمدينة الفسطاط مطابخ السطر ، ومطابخ الصابون ، ومسابك الزجاج ، ومسابك الفولاذ ، ومسابك النحاس ، والوراقات ، مما لا يعمل فى القاهرة ولا غيرها من الديار المصرية) .

---

(١) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٣١ .

(٢) ابن حوقل : المسالك والممالك ، ص ٩٦ .

(٣) ناصر خسرو : سفرنامة ، ص ١٣٥ ، وزكى محمد حسن ، كنوز الفاطميين ، ص ١٥٠ و ١٨٠ .

(٤) ابن دقماق : الانتصار ، جـ ٤ ، ص ٢٠ - ٣٧ .

وهذه الجملة التى ذكرها ابن سعيد تجمع أهل أنواع الصناعات التى كانت قائمة فى الفسطاط ، وسنحاول فيما يلى أن نفصل الحديث بعض التفصيل عن كل صناعة من هذه الصناعات :

صناعة السكر : ذكر ابن دقماق أنه كان بالفسطاط ٥٨ مطبخًا للسكر ، هذا عدا المطابخ السلطانية ، وكانت فى عهده (القرن الثامن الهجرى) (سبعة على صف واحد ، منها مطبخ للدولة ، ومطابخ للخاص السلطانى ، ثم إن السلطان حسن أفرد منها لأولاده ثلاثة ، واستقر مطبخ للدولة ، وباقيها للخاص الشريف ، ولكل واحد منها شاد ومباشرون ، وهى عمارة حسنة)[١] .

ويبدو أن معظم المطابخ الأهلية كان يديرها اليهود ، يقول ابن دقماق عن مطبخ الأمير نور الدين بن فخر الدين عثمان : (ثم سكنه بعض اليهود السكريين)[٢] .

ويذكر فى نفس الصفحة (مطبخ إبراهيم بن المشنقص اليهودى .. وهو سكن اليهود)[٣] . وعند كلامه عن مطبخ آخر كان يملكه الزكى بن المسواك يقول : (ثم سكنه اليهود)[٤] .

وقال عند كلامه عن (مطبخ الربع العادلى) : (لم يزل بيد اليهود يدولبونه ثم دولبه كريم الدين الكبير)[٥] .

وفى نفس الصفحة ذكر مطبخًا آخر كان يملكه من يدعى سعيد اليهودى .

ويتضح من كلام ابن دقماق أن غالبية هذه المطابخ للسكر كان يدولبها - أى يديرها ، فى عهده ، وفى غير عهده أمراء الدولة ووزرائها ، بل لقد كان أحد القضاة - وهو القاضى زكى الدين بن الخروبى يدولب أحد هذه المطابخ ، أما المطابخ الأهلية فكان يدولب معظمها اليهود ، وكان واحد منها ملكًا للنصارى الكركيين[٦] .

وكان بعض هذه المطابخ إذا خربت استخدمت مصانع أخرى لطبخ الصابون ، أو لنفض الكتان ، أو للصباغة ، أو لسبك النحاس ، يقول ابن دقماق عند كلامه عن أحد هذه المطابخ : (ثم جعل صيانة برسم عمل الصابون)[٧] .

---

(١) ابن دقماق : الانتصار ، جـ ٤ ، ص ٤١ .

(٢) ابن دقماق : الانتصار ، جـ ٤ ، ص ٤١ .

(٣) وكان ابن المشنقص يملك مطبخًا ثانيا ، انظر المرجع السابق ، ص ٤٤ .

(٤) ابن دقماق : الانتصار ، جـ ٤ ، ص ٤٣ .

(٥) نفس المرجع ، ص ٤٤ .

(٦) نفس المرجع ، ص ٤٣ - ٤٤ .

(٧) نفس المرجع ، ص ٤٥ .

وعن مطبخ آخر: (وتعطل فى سنة ٦٥٣هـ وذهبت عمده وآلاته، وجعل مقشره للحمص، ثم جعل مناخا للجمال، ثم جعل منفضا للكتان)[١].

وعن مطبخ آخر : (ثم تعطل وجعل مصبغة للأحمر)[٢].

وفى نفس الصفحة يتكلم عن مطبخ خرب ، ويختتم كلامه بقوله : (فخرب وهدم وجعل مكانه (كذا) يضرب فيه ما يسبك فى الكور من النحاس) .

وفى أحيان أخرى كانت تستعمل هذه المطابخ بعد خرابها كمخازن لخزن الملح أو الفحم ، يقول ابن دقماق عن أحد هذه المطابخ : (وهو الآن ساحة وجعل منشرًا)[٣]. وعن مطبخ آخر (وخرب وهو يخزن فيه الملح الآن)[٤] وعن ثالث : (وجعل مخزنا يخزن به الفحم) .

صناعة الزجاج :

صناعة الزجاج قديمة فى مصر ، وكان لها شأن كبير فى العصر الرومانى ، وظلت مزدهرة فى العصر الإسلامى، ولكن مركز إنتاجها الهام أصبح فى العاصمة الجديدة الفسطاط، وقد ذكرنا ناصر خسرو أن التجار بهذه المدينة كانوا يقدمون للمشترين مبيعاتهم فى أوان من الزجاج كانت تقوم مقام الورق فى هذه الأيام ، وقد كشف فى حفائر الفسطاط عن قطع كثيرة من الأقراص الزجاجية التى كانت تتخذ عيارات لوزن النقود فى العصر الإسلامى ، وقد نقش على كثير منها أسماء ولاة مصر وخلفائها ، وقد أشار ابن سعيد إلى وجود عدد من مسابك الزجاج فى مدينة الفسطاط.

صناعة البللور الصخرى :

كذلك ازدهرت بالفسطاط صناعة الأوانى الفاخرة من البللور الصخرى ، وقد أعجب ناصر خسرو بما رآه من أنواع هذه الصناعة فى سوق القناديل بالفسطاط ، فقال : (إنه كان غاية فى الجمال والإبداع ، وإنه كان مشغولاً بأسلوب فنى على يد صناع لهم ذوق رقيق) ، وذكر فى هذه المناسبة أن البللور كان يجلب من بلاد الغرب حتى قبل رحلته إلى مصر بزمن وجيز حين جىء ببعضه من إقليم البحر الأحمر ، وكان هذا النوع الجديد أجل من المغربى وأكثر منه شفافية)[٥].

---

(١) نفس المرجع ، ص ٤٥.

(٢) نفس المرجع السابق ، ص ٤٥ .

(٣) نفس المرجع ، ص ٤٤ - ٤٥ .

(٤) نفس المرجع ، ص ٤٤ - ٤٥ .

(٥) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ١٨٨ ؛ وناصر خسرو : سفرنامة ، ص ١٤٩ .

وقد أدى عثور المصريين على البللور فى بلادهم إلى انخفاض ثمنه وكثرة إنتاجه ، ولهذا كانت قصور الفاطميين وقصور وزرائهم وكبار رجال دولتهم تضم العدد الكثير من الأوانى البديعة المصنوعة من هذا الصنف .

الصناعات الخشبية :

كذلك كان لصناعة الخشب ونقشه شأن كبير فى مدينة الفسطاط ، ويدل على نموها والعناية بها النقوش الجميلة على أبواب المساجد والكنائس والدور ، وما وجد على الإطارات الخشبية التى عثر عليها فى هذه المبانى من نقوش وكتابات .

ولم يكتف المصريون بما كان لديهم من أصناف الأخشاب المستخرجة من الأشجار المحلية كأشجار السدر والجميز والسنط والسرو والأتل .. إلخ بل استوردت الأخشاب المتينة من الخارج، كشخب الأرز من آسيا الصغرى وسوريا ولبنان ، وأخشاب الزينة من المشرق كخشب التاك والساج من الهند ، والأبنوس من السودان ، كما استوردوا أصنافاً أخرى من بلدان جنوب أوربا وخاصة الجمهوريات الإيطالية كجنوة والبندقية[1] .

وقد كانت فى الفسطاط أسواق عامرة بالأخشاب منذ العصر الطولونى ، وكان له تجار كثيرون، كما كانت ترد معظم الأخشاب إلى ديوان الحراج بالفسطاط فيبيعها للتجار حيث تستغل فى الصناعات الخشبية المختلفة أو تستخدم لبناء سفن الأسطول[2] .

وكان للقبط مهارة فائقة منذ القدم فى التجارة وصناعة الخشب ونقشه وزخرفته ، وظلت لهم الزيادة فى هذا الميدان بعد الفتح العربى ، ثم تعلم على أيديهم من أسلم من المصريين .

صناعة العاج :

وكان لصناعة العاج شأن فى العصر الإسلامى ، وهى صناعة قديمة ، وقد عثر فى حفائر الفسطاط على قطع شطرنج مصنوعة من العاج وعليها زخارف ، كذلك استعمل العاج فى نقش الخشب وحشوه وتجميله . وقد عثر كذلك فى حفائر الفسطاط على قطع كثيرة ، منها حشوة من العاج عليها رسم سيدة فى هودج وجندى فى يده رمح وقوس وصائد بالباز على ظهر جواده ، وهذه القطعة ترجع للعصر الفاطمى ، وهى محفوظة الآن فى دار الآثار العربية بالقاهرة ، وفى بعض الحشرات الأخرى رسوم طيور وحيوان كالأرنب والطاووس .. إلخ[3] .

---

(١) انظر ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٦٥ .

(٢) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٣٣ - ١٣٥ .

(٣) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ٢٢٥ .

صناعة الحلى :

وقامت كذلك بالفسطاط صناعة الحلى وأدوات الزينة ، وقد عثر فى حفائر الفسطاط على إسورة وخواتم وأقراط من الذهب أو الفضة ، وعليها زخارف نباتية دقيقة ، ويرجح أنها ترجع إلى العصر الفاطمى[1] .

صناعة الخزف :

(أ) الخزف ذو البريق المعدنى : ليس هناك أى دليل على وجود أى خزف ذى بريق معدنى فى الفسطاط قبل القرن الثالث الهجرى - أى قبل العصر الطولونى - وإنما المرجح أن هذا النوع من الخزف نشأ فى العراق ، ثم نقلت صناعته إلى مصر فى عهد أحمد بن طولون ، فلما جاء العصر الفاطمى كانت هذه الصناعة قد نمت فى مصر وازدهرت . وقد رأى ناصر خسرو نماذج من هذا الخزف فى الفسطاط ، وأعجب بها أيما إعجاب . وقد عمل الفخاريون بالفسطاط على تقليد هذا النوع من الخزف ذى البريق المعدنى كما يظهر ذلك واضحًا فى قطع منه وجدت فى أطلال الفسطاط .

وقد أشار ناصر خسرو إلى صناعة الخزف فى الفسطاط فى العصر الفاطمى فقال :

(إن المصريين كانوا يصنعون أنواع الخزف المختلفة ، وأن الخزف المصرى كان رقيقًا وشفافًا ، حتى لقد كان ميسرًا أن ترى من باطن الإناء الخزفى اليد الموضوعة خلفه ، وكانت تصنع بمصر الفناجين والقدور والبرانى والصحون والمواعين الأخرى ، وتزين بألوان تشبه لون القماش المسمى بوقلمون ، وهى ألوان تختلف باختلاف أوضاع الآنية)[2] .

وقد اندثرت هذه الصناعة من الفسطاط بعد حريق شاور للمدينة ، أى فى نهاية الدول الفاطمية .

وكان رؤساء هذه الصناعة يثبتون أسماءهم على قطع الخزف التى تخرج من مصانعهم أو فواخيرهم ، وخاصة فى العصر الفاطمى ، وأشهر هذه الأسماء مسلم ، وسعد ، وطيب على ، وإبراهيم المصرى .. إلخ .

(وكانت الرسوم الآدمية ورسوم الحيوان العنصر الأساسى فى زخارف الخزف الفاطمى ، بينما كانت الفروع النباتية والأوراق عنصر ثانويًا يصحب الموضوع الرئيس الذى يسوده بكبر حجمه وظهور أهميته)[3] .

---

(١) نفس المرجع ، ص ٢٤٨ .

(٢) كنوز الفاطميين . ص ١٥٢ .

(٣) كنوز الفاطميين . ص ١٥٥ - ١٦٠ .

ويقسم الدكتور زكى محمد حسن صناعة الخزف فى الفسطاط فى العصر الفاطمى إلى مدرستين : تنتسب إحداهما إلى رجل يدعى سعد ، والأخرى إلى رجل يدعى مسلم ، ثم يقارن بين مميزات ما صنع فى مصانع كل من المدرستين فيقول : (والظاهر أن مدرسة سعد فى الزخرفة بالبريق المعدنى لم تقتصر على الخزف فقط، بل تجاوزته إلى الزجاج .. أما الرسوم الآدمية فى منتجات سعد وأتباعه ففيها أنوثة ورقة تذكر برسوم الأشخاص فى صور رضا عباسى[1] .

الخزف الصينى :

(ب) وقد عثر فى حفائر الفسطاط على قطع كثيرة من الخزف الصينى أو من خزف حاول الصناع المصريون فيه تقليد خزف الصين ، ومن المرجح أن استيراد الخزف الصينى إلى مصر بدأ فى العهد الطولونى ، فقد عرف ابن طولون هذا النوع من الخزف فى سامرا ، ومن الواضح أن وجود الصينى فى الفسطاط يدل على وجود علاقات تجارية بين مصر والصين فى ذلك الحين ، يقول الدكتور زكى محمد حسن : (وليس غريب أن يسعى الخزفيون المصريون فى تقليد الخزف الصينى إرضاء للذوق السائد فى ذلك العصر ، فقد كان الخزف الصينى مشهورًا فى الشرق الأدنى)[2] .

ولم يعمل المصريون على تقليد الخزف الصينى تقليدًا أعمى ، وإنما نقلوا عن نقوشه واقتبسوا من رسومه ، وأنتجوا خزفًا لا يقل جودة ولا جمالاً عن الخزف الصينى .

صناعة الفخار غير المدهون :

وقامت فى الفسطاط إلى جانب صناعة أصناف الخزف ذى البريق المعدنى صناعة الفخار غير المدهون ، يصنع منه الأوانى الشعبية ، وخاصة القلل التى لم تكن تغطى بدهان إلى فى النادر، وأجمل ما فى القلل شبابيكها التى كانت ميدانًا طيبًا للزخارف الهندسية والرسوم الهندسية والحيوانية . (ولا شك أن شبابيك القلل التى عثر عليها فى أطلال الفسطاط قد صنعت فى الفسطاط نفسها ، لأن بعض القطع التى عثر عليها كانت مما تلف أثناء صناعتها أو تسويتها، ولم يكن ثمة داع لجلبها من مكان بعيد وهى فى هذه الحالة من التلف)[3] .

---

(١) كنوز الفاطميين : ص ١٦٢ .

(٢) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ٦٦ .

(٣) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ، ص ١٧٤ .

صناعة قوارير النفط :

كذلك كانت بالفسطاط مصانع لصنع قوارير النفط ، وهى تشبه أن تكون قنابل يدوية صغيرة، وقد صنعت من مادة سميكة وعلى أشكال مختلفة، وهى، محببة الظاهر ، وفى بعض جوانبها نتوء ليسهل على الرامى مسكها ، وتذكر المراجع التاريخية أن عددًا كبيرًا من هذه القوارير قد استخدم فى حرق الفسطاط فى عهد وزارة شاور سنة ٥٦٤هـ (١١٦٨م) . قال المقريزى : (وبعث شاور إلى مصر بعشرين ألف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نار ، فرق ذلك فيها . فارتفع لهب النار ودخان الحريق إلى السماء ، فصار منظرًا مهولاً ، فاستمرت النار تأتى على مساكن مصر من اليوم التاسع والعشرين من صفر لتمام أربعة وخمسين يومًا) .

(ومن أنواع الفخار التى عرفت فى العصر الفاطمى الخزف ذو الزخارف المحفورة أو المحزوزة فى طينة الإناء تحت طلاء ذى لون واحد . وقد وجدت فى أطلال الفسطاط قطع من هذا النوع لم تصلح صناعتها أو تسويتها فى الفرن مما يمكن أن يستنبط منه أن مدينة الفسطاط كانت مركز صناعة هذا الخزف ..)[1] .

صناعة الورق :

وكانت بالفسطاط مصانع أو مطابخ لصنع الورق ، يقول المقريزى عند كلامه عن إحدى خطط الفسطاط : (وهذا الموضع اليوم وراقات يعمل فيها الورق)[2] .

ويقول فى موضع آخر : (والمطابخ التى يصنع فيها الورق المنصورى مخصوصة بالفسطاط دون القاهرة)[3] .

---

(١) نفس المرجع السابق والصفحة.

(٢) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٧٧

(٣) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٨٩

الباب الرابع

الحياة العلمية فى الفسطاط

نشأتها وتطورها

- المدرسة الدينية.
- المدرسة التاريخية.
- المدرسة الأدبية.
- المدرسة العلمية.

الحيـاة العلمية
فى الفسطاط

المدرسة الدينية:

كانت مصر مهدًا لحضارة علميـة مزدهـرة فـى العصريـن البطلمـى والرومـانى، غـير أن هـذه الحضارة كانت قد انتابتها عوامل الانحلال والضعف قبيل الفتح العربى، فلما استقر العرب فى مصر - وخاصة فى الفسطاط فـى أول الأمـر - بـدأوا يمـهدون لتكويـن حضـارة علميـة جديـدة، وساعد على تكوين هذه الحضارة الجديدة انتشار العرب بين المصريين وزواجهم منهم، فلم يكد ينتهى القرن الثالث الهجرى حتى كان الإسلام قد انتشر فى ربوع مصـر، وحتـى كـانت اللغـة العربية هى لغة جميع المصريين.

وكان واجب العرب الأول فى مصر وغيرها من الأمصار هو نشر الدين الإسـلامى، وتعاليمـه، ولذلك نجد أن كبار الصحابة الذين استقروا فى مصرهم المعلمون الأول، كما أن مسجد عمرو فى الفسطاط هو المدرسـة الأولى التى درس فيها هذا العلم. وقـد نشـأت إلى جـانب الفسـطاط عواصـم أخرى هى: العسـكر، والقطائع، والقاهرة، غير أن هذه العواصم كانت دائمًـا ضواحـى ملكيـة كما ذكرنا - وظلت الفسطاط دائمًا مركز النشاط العلمى وملجأ العلماء والفقهاء.

وبديهى أن تكون العلوم الأولى التى درست بالفسـطاط تتصـل بالقرآن وتفسـيره، وبـالحديث وروايته، وكان إمام هذه المدرسة المصرية الصحابى الشهير عبد الله بن عمـرو بـن العـاص. وقـد كان رجلاً واسع الثقافة، روى أنه كان يقرأ التوراة، وذكر ابن سعد فـى طبقاتـه أنـه كـان يقـرأ بالسريانية.

وعنى عبد الله بن عمرو أكثر ما عنى برواية الحديث، قال مجاهد:

«رأيت عند عبد الله بن عمرو صحيفة، فسألته عنها، فقال: هذه الصادقة، فيها ما سمعت من رسول الله - ﷺ - وليس بينى وبينه فيها أحد»[1].

وقد روى عنه الحديث كثيرون، وكان كثير الترحال، وخاصة إلى بلاد الحجاز والشام، غـير أنه استقر بمصر، وسكن بداره - دار عمرو الصغرى - بالفسطاط، وبها مات ودفن - تبعًا لأحـد الأقوال -.

---

(١) طبقات ابن سعد، ص ٧، ص ١٨٩؛ وانظر أيضًا أحمد أمين: فجر الإسلام، ص ٢٢٨.

ويعتبر عبد الله بن عمرو - بحق - المؤسس الأول للمدرسة العربية فى مصر، عنه تلقى كثير من المصريين ودونوا ما كان يرويه من أحاديث.

فالمدرسة الأولى فى مصر كان مكانها جامع عمرو بالفسطاط، وأساتذتها كبار الصحابة، وأستاذها الأول عبد الله بن عمرو، وعلومها دينية تتصل بالقرآن وتفسيره، والحديث وروايته. وقد كثرت الرحلة من مصر وإليها فى طلب الحديث وتصحيحه، ونبغ من المصريين كثيرون هم تلامذة هذه المدرسة الأولى، ومن أشهرهم فى القرن الأول سليم بن عتر التجيبى «وهو أول من قص بمصر سنة ٣٩ هـ، وولاه معاوية القضاء سنة ٤٠ هـ، فأقام قاضيًا عشرين سنة، وهو أول من أسجل بمصر سجلاً فى المواريث، مات بدمياط سنة ٧٥ هـ»[١].

ومن أبرز الشخصيات العلمية فى مصر فى القرن الثانى يزيد بن أبى حبيب الأزدى، وكان رجلاً واسع المعرفة فى الناحيتين التاريخية والفقهية، يروى عنه كثير من أخبار الفتح العربى لمصر، وهو أول من عنى بالتشريع فى مصر بعد أن كانت عناية سابقيه بالقصص والتاريخ، ذكر السيوطى فى حسن المحاضرة «أنه أول من أظهر العلم بمصر، والمسائل فى الحلال والحرام، وقبل ذلك كانوا يتحدثون فى الترغيب والملاحم والفتن»[٢].

وقد نبغ من تلاميذ يزيد اثنان من أعلام المدرسة المصرية الأولى، وهما: عبد الله بن لهيعة، والليث بن سعد.

أما ابن لهيعة فمن أصل حضرمى، وكان - كما يقول الذهبى - «من الكتابين للحديث والجماعين للعلم والرحالين فيه»[٣].

وكان ابن لهيعة «يكنى أبا خريطة» وذلك أنه كانت له خريطة معلقة فى عنقه، فكان يدور بمصر. فكلما قدم قوم يدور عليهم، فكان إذا رأى شيخًا سأله: من لقيت؟ وعمن كتبت؟[٤].

وقد ولى ابن لهيعة قضاء مصر من قبل أبى جعفر المنصور نحو عشر سنين (١٥٥هـ - ١٦٥هـ). وقد نقل عنه الكندى كثيرًا من أخبار الفتح العربى لمصر، وقد توفى سنة ١٧٤ هـ ودفن بالقرافة من جبانة مصر. وقد وصفه صاحب النجوم الزاهرة بأنه كان عالم الديار المصرية وقاضيها ومحدثها.

أما الليث بن سعد فمصرى المولد، وإن كانت أسرته من أصبهان بفارس ولد فى قرية قشنده سنة ٩٣ هـ (أى فى السنة التى ولد فيها الإمام مالك) وتلقى العلم فى مصر، وتتلمذ ليزيد بن أبى حبيب، ثم ارتحل يستكمل علمه، فتلقى عن شيوخ الحجاز والعراق.

---

(١) السيوطى: حسن المحاضرة، جـ ١، ص ١٢٩.

(٢) نفس المرجع، ص ١٣١.

(٣) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ ٢، ص ٧٧.

(٤) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ ٢، ص ٨٨.

وكان الليث غنيًا ذا أملاك كثيرة، وكان كريمًا كثير الصلات للعلماء، احترقت دار ابن لهيعة فوصله بألف دينار، ولما زار المدينة أهدى إليه مالك أشياء من طرفها، فبعث إليه ألف دينار، وكتب إليه مالك مرة يذكر أن عليه دينًا، فأرسل إليه خمسمائة دينار، وقد وصله مرات كثيرة غير هذه[1].

ومع هذا كان الليث غزير العلم، واسع المعرفة، محدثًا ثقة، يجيد النحو والعربية، قال عنه أحمد بن حنبل: ما في هؤلاء المصريين أثبت من الليث.. ما أصح حديثه».

قال عنه الشافعي:

«الليث أفقه من مالك، إلا أن أصحابه لم يقوموا به».

وقد كانت تربط بين الإمامين الليث ومالك صلات من الود وثيقة، وقد تبودلت الرسائل بين الرجلين لمناقشة كثير من المسائل الفقهية، وقد حفظت لنا الكتب التي تؤرخ للفقه رسالتين من هذه الرسائل مرسلة من مالك إلى الليث يأخذ عليه فيها في أسلوب رقيق فتواه بأشياء تخالف ما يسير عليه أهل المدينة، مع أن المسلمين - كما يقول مالك - تبع لأهلها، فهي دار الهجرة، وفيها نزل معظم القرآن الكريم، وفي ختام الرسالة يرجو مالك أخاه الليث أن يراجع نفسه فيما كتب، وفيما أفتى، وأن يلتزم طريق أهل المدينة ويتبع منهجهم.

والرسالة الثانية تتضمن رد الليث على مالك، وفيها يدافع دفاعًا قويًا ولبقًا عن رأيه ومذهبه، والرسالتان في الواقع نموذج طيب لأدب الحواريين العلماء.

وكان الليث بعلمه وكرمه ذا شخصية فذة في المجتمع المصري، فكان الأمراء يجلونه ويرجعون إلى رأيه دائمًا، وقد رشحه الخليفة أبو جعفر المنصور للقضاء فاعتذر، فطلب منه أن يدله على من يصلح لتولي القضاء ففعل، قال ابن تغرى بردى.

«كان الليث كبير الديار المصرية ورئيسها، وأمير من بها في عصر، بحيث أن القاضي والنائب من تحت إمرته ومشورته، وكان الشافعي يأسف على فوات لقيه»[2].

ويدل على نفوذ الليث ما كتبه بعض الشانئين إلى الخليفة المنصور في حقه:

أمير المؤمنين تلاف مصرًا فإن أميرها ليث بن سعد

وقال أشهب بن عبد العزيز: «كان لليث أربعة مجالس في كل يوم: مجلس لحوائج السلطان، ومجلس لأصحاب الحديث، ومجلس لأصحاب المسائل (أي الفتوى في الحلال أو الحرام)، ومجلس لحوائج الناس»[3].

---

(١) انظر: أحمد أمين: ضحى الإسلام، جـ ٢: ص ٨٨.

(٢) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة، جـ ٢، ص ٨٢.

(٣) انظر أحمد أمين: ضحى الإسلام، جـ ٢، ص ٩٠.

وكان الليث كذلك أحد الأعلام الثقاة الذين روى عنهم ابن عبد الحكم فى كتابه «فتوح مصر»، والكندى فى كتابه «الولاة والقضاة»، مات سنة ١٧٥هـ، فحزن المصريون جميعًا لموته ،قال واحد ممن شهدوا جنازته: «رأيت الناس كلهم عليهم الحزن، يعزى بعضهم بعضًا، فقلت لأبى: يا أبت، كأن كل واحد من هؤلاء صاحب الجنازة، فقال لى: يا بنى، كان عالمًا كريمًا حسن العقل، كثير الأفضال، يا بنى: لا ترى مثله أبدًا..».

وفى القرن الثانى للهجرة بدأت حركة تدوين الكتب وتأليفها فى مختلف ولايات الدولة الإسلامية بما فيها مصر، وكان على رأس القائمين بهذه الحركة فى مصر العالمان الكبيران عبد الله بن لهيعة ،والليث بن سعد، يؤكد هذه الحقيقة الذهبى فى تاريخ الإسلام قال:

«وفى هذا العصر (أى القرن الثانى للهجرة) شرع علماء الإسلام فى تدوين الحديث والفقه والتفسير، وصنف ابن جريج التصانيف بمكة، وصنف سعيد بن أبى عروبة وحماد بن سلمة وغيرهما بالبصرة، وصنف أبو حنيفة الفقه والرأى بالكوفة، وصنف الأوزاعى بالشام، وصنف مالك الموطأ بالمدينة، وصنف ابن إسحاق المغازى، وصنف معمر باليمن، وصنف سفيان الثورى كتاب الجامع[1]، ثم بعد يسير صنف ابن هشام كتبه، وصنف الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة، ثم ابن المبارك والقاضى أبو يوسف يعقوب، وابن وهب، وكثر تبويب العلم وتدوينه، ورتبت كتب العربية واللغة والتاريخ وأيام الناس، وقبل هذا العصر كان سائر العلماء يتكلمون عن حفظهم ويروون العلم عن صحف صحيحة غير مرتبة، فسهل ولله الحمد تناول العلم، فأخذ الحفظ يتناقص، فلله الأمر كله».

وفى ذلك الوقت ظهر مذهبًا أبى حنيفة ومالك، فانحاز إلى كل مذهب فريق من المسلمين، وكذلك كان الحال فى مصر، فقد انقسم المصريون قسمين: قسم تبع مذهب أبى حنيفة، وقسم تبع مذهب مالك، وحدث بين أتباع المذهبين نزاع ونقاش وخصام، حتى وفد على مصر الشافعى، فرحب به المصريون، واستضافته أسرة من أكرم الأسر وأغناها وأعلمها فى الفسطاط، وهى أسرة بنى عبد الحكم، وقدمته هذه الأسرة للمجتمع المصرى، فأحبه المصريون لعروبته وقرشيته وعلمه وفصاحته.

وكون الشافعى لنفسه حلقة فى المسجد الجامع - مسجد عمرو بن العاص - وأقام فى مصر نحو خمس سنين كثر فيها تابعوه وتلاميذه، وأهمهم البويطى، والمزنى، والربيع المرادى، وزاد فيها نشاطه العلمى، فألف كتاب «الأم»، وشرح مذهبه من بعده تلميذاه: المزنى والبويطى فى كتابين هما: مختصر المزنى، ومختصر البويطى. ويصف ابن حجر نشاط الشافعى العلمى أثناء مقامه فى الفسطاط فيقول:

---

(١) أحمد أمين: ضحى الإسلام، جـ ٢، ص ٩٢.

«وكان (أى الشافعى) يجلس فى حلقته إذا صلى الصبح، فيجيئه أهل القرآن فيسألونه، فإذا طلعت الشمس قاموا، وجاء أهل الحديث فيسألونه عن معانيه وتفسيره، فإذا ارتفعت الشمس قاموا واستوت الحلقة للمناظرة والمذاكرة، فإذا ارتفع النهار تفرقوا وجاء أهل العربية والعروض والشعر والنحو حتى يقرب انتصاف النهار، ثم ينصرف إلى منزله».

وبانتشار المذهب الشافعى، أصبح المسلمون فى مصر شيعًا ثلاث، وكثر النزاع والخصام بين أتباع كل مذهب واتباع المذهب الآخر.

هذه هى الحركة العلمية الأولى فى الفسطاط اصطبغت بالصبغة الدينية، وعنيت بالقصص والأخبار والتاريخ،ولم تكن مقصورة على المسلمين من العرب الذين نزحوا إلى مصر، بل شارك فيها كثيرون من المصريين الأصليين الذين أسلموا. ومنهم عثمان بن سعيد المصرى المعروف بورش -- مولى آل الزبير بن العوام - وكان من أصل قبطى، ونبغ فى قراءة القرآن، واشتهر بإحدى القراءات المنسوبة إليه، وانتهت إليه رياسة الإقراء بالديار المصرية فى زمانه «وكان ماهرًا فى العربية، مات عصر سنة ١٩٧هـ»[1]. كذلك جاء من بعده ذو النون المصرى الإخميمى النوبى الأصل «وهو أحد رؤوس الصوفية ومؤسسها فى الديار المصرية، توفى سنة ٢٤٥ هـ وقد قارب التسعين»[2].

المدرسة التاريخية:

وقد تشعبت من هذه المدرسة الدينية الأولى مدرسة أخرى تعنى بالتاريخ وبالتاريخ المصرى خاصة، وكانت باكورة ما ألفت هذه المدرسة كتاب «فتوح مصر والمغرب والأندلس» لعبد الرحمن ابن عبد الحكم الذى يعتبر بحق أول مؤرخى مصر الإسلامية، ويليه كتاب «در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة» للربيع - تلميذ الشافعى -.

وكانت هذه المدرسة متأثرة فى أول أمرها بالمدرسة الدينية، فكانت تروى التاريخ روايتها للحديث، ثم أخذت تتحرر شيئًا فشيئًا من هذا الأثر، ونبغ من المؤرخين المصريين فى القرنين الثالث والرابع عدد كبير من بينهم:

١ - عمار بن وسيمة المصرى المتوفى سنة ٢٨٩هـ، وأحد تلاميذ الليث بن سعد، ذكره السيوطى فى «حسن المحاضرة»، وقال إنه ألف تاريخًا على السنين، وقد ضاع هذا التاريخ:

٢ - أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس المصرى الحافظ المؤرخ، ولد سنة ٢٨١هـ وتوفى سنة ٣٤٧، وقال عنه مؤرخوه إنه كان إمامًا فى علم التاريخ، وله كلام فى الجرح

---

(١) السيوطى: حسن المحاضرة، ج ٢، ص ٢٢٤.

(٢) أحمد أمين: ضحى الإسلام. ج ٢، ص ٩٢.

والتعديل يدل على تبصره بالرجال، ألف كتابين فى تاريخ مصر، الأول - وهو الأكبر - يختص بأهل مصر، والثانى يختص بذكر الغربـاء الوافديـن علـى مصـر، ولـه كتـاب ثـالث فـى تـاريخ الصعيد اسمه «العقيد فى تاريخ الصعيد» انفرد بذكره حاجى خليفة فى «كشف الظنون».

وكتب ابن يونس جميعًا مفقودة، وإن كان المؤرخون المتأخرون ينقلون عنه كثـيرًا، وقـد رثـاه بعد موته الشاعر المصرى أبو عيسى عبد الرحمن بن إسماعيل الخشاب النحوى بأبيـات طريفـة منها البيت المشهور:

مـازلن تلهـج بالتـــاريخ تكتبه حتى رأيناك فى التاريخ مكتوبا.

وقال ابن كثير. «وله ولد يقال له أبو الحسن على، وكان منجمًا لـه زيـج مفيـد يرجـع إليـه أصحاب هذا الفن كما يرجع أصحاب الحديث إلى أقوال أبيه ومايؤرخـه وينقلـه ويحكيـه، وإن كان ابن خلكان يقول إن عبد الرحمن نفسه هو المنجم المشهور صاحب الزيج، وهذا وهم من ابن خلكان. والصحيح ما ذكـره ابـن كثـير، وللابـن ترجمـات مختلفـة خلاصتـها أن الابـن - أبـا الحسن على - كان من خواص المقربين للخليفة الفـاطمى الحاكم بأمر الله، ولـه كتـاب «الزيـج الكبير الحاكـمى»، أتمه قبـل وفاتـه سـنة ٣٩٩هـ، وأنه كان مختصًا بعلـم النجوم متصرفًـا فـى سائر العلوم، بارعًا فى الشعر، وله شعر كثير.

وقد نبغ من أسرة ابن يونس عدد كبير من العلماء، منهم عبد الرحمـن المـؤرخ، ومنـهم ابنـه العالم الفلكى أبو الحسن على، وكان جد عبد الرحمن من فقهاء مصر المعدودين، فهو أبو موسى يونس بن عبد الأعلى الفقيه المصرى صاحب الشافعى.

٣ - ابن الداية (أبو جعفر أحمد بن يوسف):

كان أحد كتاب بنى طولون المقربين إليهم، ومـن الممكـن أن نقـول إنـه كـان المـؤرخ الرسمـى للأسرة. فقد ألف كتابًا فى «سيرة أحمد بن طولون» وكتابًا آخر فـى سـيرة ابنـه «أبـى الجيـش خمارويه»، ويقول ابن زولاق: «وكان أبو جعفر أحمد بن يوسف بن إبراهيـم الكـاتب قـد عمـل سيرة أحمد بن طولون أمير مصر، وسيرة ابنه أبى الجيش، وأنشدا فى الناس، وقرأنهما عليـه، وحدثت بهما عنه، مع غيرهما من مصنفاته، ثم عملت أنا ما فاته من سيرتهما» [1].

وواضح من كلام ابن زولاق أن ابن الداية كانت له كتـب أخـرى فـى التـاريخ. وقـد أشـارت المراجع الأخرى التى ترجمت لـه إلى عنـاوين هـذه الكتـب وهـى: كتـاب «أخبـار غلمـان بنـى طولون»؛ وكتاب «حسن العقبى»، وكتاب «أخبـار الأطبـاء» وكتـاب «المكافـأة»، وهـذه الكتـب للأسف قد فقدت ولم يصلنا منهما غير كتب ثلاثة هى: «سيرة أحمـد بـن طولـون» و«المكافـأة» و«حسن العقبى».

---

(١) المغرب لابن سعيد، ص ٤.

٤ - البلوى (أبو محمد عبد الله بن محمد المدينى):

وهو مؤرخ مصرى مجهول لم يعن أحد من قبل بالكتابة عنه، لا نعرف تاريخ مولده أو وفاته، ولكنا نعرف أنه ينتمى إلى قبيلة بلى العربية، وأنه عاش فى القرن الرابع الهجرى (١٠م). كان ابن النديم أول من ترجم له فى كتابه «الفهرست»، فذكر أنه كان عالمًا وفقيهًا وواعظًا، وأنه ألف كتبًا كثيرة منها: كتاب الأبواب، وكتاب المعرفة، وكتاب الدين وفرائضه. وقد فقدت هذه الكتب جميعًا، ولم يبق من مؤلفاته إلا كتابه «سيرة أحمد بن طولون» وحوالى سنة ١٩٣٥م كشف الأستاذ محمد كرد على عن نسخة خطية من هذا الكتاب فى المكتبة الظاهرة بدمشق، ونشرها نشرة علمية دقيقة، مع مقدمة وتعليقات مفيدة.

ويعتبر هذا الكتاب من أهم المراجع لدراسة تاريخ أحمد بن طولون بل ولدراسة تاريخ مصر والشرق الأدنى الإسلامى فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى (٩م)، فهو أكثر تفصيلاً من المراجع الأخرى التى وصلتنا عن هذه الحقبة من الزمن.

٥ - الكندى (أبو عمر محمد بن يوسف):

من مؤلفى القرن الرابع الهجرى، فقد ولد سنة ٢٨٣هـ وتوفى سنة ٣٥٠هـ، ويمثل مرحلة النضوج فى المدرسة التاريخية المصرية فى العصر الإسلامى الأول. فمن كتبه يتضح أن التاريخ قد استقل بنفسه كعلم، فبعد عن علم الحديث، وتخفف من الإسناد إلى حد كبير، وقعدت له قواعده، واتخذت له مناهجه، واتجه المؤرخون المصريون فى تأليفهم إلى فنون خاصة بهم انفردوا بها عن بقية المدارس التاريخية فى أجزاء العالم الإسلامى الأخرى، وخاصة فن التأليف فى الخطط الذى بدأه ابن عبد الحكم، وسار على نهجه فيه الكندى.

وللكندى مؤلفات كثيرة منها كتاب «الخطط». وقد أشار المقريزى إلى أنه اعتمد عليه كثيرًا فى كتابه «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار»، وكتاب «مسجد أهل الراية»، وقد أرخ فيه للقواد والعلية من الموالى غير العرب الذين اشتركوا فى فتح مصر أو وفدوا عليها.

وقد ضاعت هذه الكتب جميعًا، ولم يصلنا من كتب الكندى إلا كتابه «الولاة والقضاة»، وهو أهم كتبه جميعا، وفيه يؤرخ لولاة مصر منذ عمرو بن العاص إلى أنوجور بن الإخشيد، ولقضاة مصر فى نفس الحقبة.

والكتاب فى الحقيقة مصدر هام جدًا لكل من يريد التأريخ لمصر فى العصر الإسلامى الأول، وقد اعتمد عليه ونقل عنه كل المؤرخين اللاحقين.

٦ - الحسن بن زولاق:

من مؤرخى القرن الرابع كذلك، فقد ولد سنة ٣٠٦هـ وتوفى سنة ٣٨٧هـ، وهو من تلاميذ ابن الداية وأبى عمر الكندى، قرأ عليهما وأخذ عنهما، وتأثر بهما كثيرًا، وكان تأثره بالكندى أكبر وأوضح.

كان ابن زولاق مؤرخًا مخضرمًا، فقد عاصر الدولة الإخشيدية، وأدرك أوائل الدولة الفاطمية، وقد تأثر بأستاذه ابن الداية فى كتابه «السير» فألف عددًا كبيرًا من الكتب فى هذا الفن، منها: سيرة الإخشيد، وسيرة كافور، وسيرة جوهر، وسيرة المعز، وسيرة العزيز، سيرة الماذرائيين وزراء الاخشيديين، كما ألف سيرة خاصة لصديقه وزميله فى الدراسة سيبويه المصرى - وهو عالم نحوى عاش فى الفسطاط فى أواخر العصر الإخشيدى وأصابته فى أواخر أيامه لوثة من الجنون.

أما تأثر ابن زولاق بأستاذه الكندى فيتضح فى تأليفه فى نفس الموضوعات التى طرقها من قبله الكندى، فقد ألف فى فضائل مصر وخططها، كما ألف ذيلاً لكتاب ولاة مصر وقضائها الكندى.

ولم يصلنا من كتب ابن زولاق إلا «سيرة سيبويه المصرى»؛ وذيله على كتاب القضاة (وقد نشره جست ملحقًا بكتاب القضاة للكندى)، أما كتبه الأخرى فقد ضاعت، وإن كان المؤرخون اللاحقون قد نقلوا عنها كثيرًا، وخاصة المقريزى، ففى كتابيه «اتعاظ الحنفا» و«الخطط» مقتبسات كثيرة عن «سيرة المعز لدين الله» و«سيرة الماذرائيين».

هؤلاء هم أقطاب المدرسة التاريخية فى فجر مصر الإسلامية، وقد أشاعوا نشاطًا كبيرًا فى حركة التأليف التاريخى، وقد شارك فى هذا النشاط وتأثره به وأثر فيه عدد آخر من كبار المؤرخين المسلمين الذين وفدوا على مصر فى هذه الفترة، فقد وفد عليها فى أواخر القرن الثانى للهجرة أبو محمد عبد الملك بن هشام صاحب السيرة النبوية المشهورة باسمه، وأقام بمصر إلى ان توفى سنة ٢١٣هـ. وقد تأثر كتابه السيرة بمصر وعلمائها فنراه يروى أحيانًا عن ابن لهيعة وغيره. وزار مصر مرتين المؤرخ الكبير ابن جرير الطبرى ونقل عن محدثيها ومؤرخيها، كما زارها المسعودى وكتب الفصول القيمة عن تاريخها فى كتابيه «مروج الذهب» و«أخبار الزمان».

واضح أن هذه الحركة العلمية الأولى كانت مقصورة على الفسطاط والإسكندرية، وهما مركز القوات العربية الإسلامية الأولى، يقول المقريزى: «إن الديار المصرية لما افتتحها المسلمون كانت خاصة بالقبط والروم، مشحونة بهم، ونزل الصحابة - رضى الله عنهم - من أرض مصر موضع الفسطاط الذى يعرف الآن بمدينة مصر، وبالإسكندرية، وتركوا سائر قرى مصر بأيدى القبط، ولم يسكن أحد من المسلمين بالقرى، وإنما كانت رابطة تخرج إلى الصعيد، حتى إذا جاء أوان الربيع انتشر الأتباع فى القرى لرعى الدواب ومعهم طوائف من السادات.. ولم ينتشر المسلمون بالنواحى إلا بعد عصر الصحابة والتابعين، ولم يؤسسوا فى القرى والنواحى مساجد.. فلما أوقع المأمون بالقبط (بعد ثورتهم سنة ٢١٦هـ) غلب المسلمون على أماكنهم من القرى».

المدرسة الأدبية:

ولم تلبث هذه الدراسات الدينية التاريخية أن أنتجت نوعًا جديدًا من الدراسات الأدبية، وبدأت هذه الدراسات ضعيفة أول الأمر، ثم نمت وقويت وازدهرت. وساعد على نموها وازدهارها عوامل كثيرة، أهمها:

١ - عناية هؤلاء العلماء والفقهاء بدراسة الأدب ورواية الشعر، إذ كان الكثيرون منهم شعراء، كالإمام الشافعي مثلاً، فإن الكتب التي ترجمت له تروى الكثير من شعره.

٢ - تشجيع كثير من الولاة والأمراء للأدباء والشعراء، فوفد على مصر في العصر الأول كثيرون من كبار شعراء العرب، منهم جميل بثينة - ويقال إنه مات بمصر - وكثير عزة، وعبد الله بن قيس الرقيات، وكذلك وفد عليها في العصر العباسي أبو نواس، والمتنبي، وفي صحن المسجد العتيق وبين حلقاته العلمية نشأ الشاعر الكبير أبو تمام، فقد كان يسقى الماء في الجامع ويتلقى العلم على شيوخه..

وكتب العصريين الطولوني والإخشيدي تذكر كيف أجزل حكام هاتين الدولتين العطاء للأدباء والشعراء، يقول النابلسي في كتابه: «حسن السيرة في اتخاذ الحصن بالجزيرة»: «رأيت كتابًا قدر أثنتي عشرة كراسة مضمونة فهرست شعراء الميدان الذي لأحمد بن طولون.. فإذا كانت أسماء الشعراء في ثنني عشرة كراسة كم يكون شعرهم؟..» [١].

ومن هذا القول يتضح كيف ازدهرت دولة الشعر في عهد الطولونيين، وهذا أمر طبيعي فقد استقلت مصر في هذا العهد ونعمت بانتشار الأمن والرخاء وأحست القوة والعزة، وعهود الاستقلال دائمًا عهود ازدهار للحضارة والعلوم والآداب.

ولم يعد المسجد العتيق - مسجد عمرو بن العاص - وحده مكان الدرس، بل تكونت حلقات كثيرة في المساجد الأخرى التي أنشئت في الفسطاط وضواحيها وخاصة جامع - ابن طولون، كما كانت تعقد مجالس أخرى تدور فيها المساجلات العلمية والأدبية في سوق الوراقين [٢] بالفسطاط، وفي دور الوزراء، كدار الوزير أبي على الحسين بن محمد المادرائي[٣]، ودور الأمراء، كدار أبي القاسم أو نوجور [٤]، ودار كافور [٥]، وفي دور الثراة [٦] من تجار الفسطاط أيضًا.

---

(١) ينقل هذا عنه المقريزي في الخطط، ج ١ ، ص ١٢٤.

(٢) ابن زولاق: أخبار سيبويه المصري، ص ١٨.

(٣) ابن زولاق: أخبار سيبويه المصري، ص ٣٤.

(٤) نفس المرجع، ص ٣٦.

(٥) نفس المرجع، ص ٤١.

(٦) نفس المرجع، ص ١٩.

وقد زار مصر فى هذا العصر الأول من كبار شعراء العرب، جذبهم إليها - فى جملتهم - طمع فى عطاء ولاتها، أو سعى وراء ثراء وجاه، ولهذا كان معظم شعر هؤلاء إما مدحًا لمن قصدوه من ولاة، أو هجاء مقذعًا لهم إذا لم يحققوا لهم آمالهم، ومع هذا فقد اتصل هؤلاء الشعراء بشعراء مصر، وقامت بين هؤلاء وأولئك مساجلات أدبية وشعرية كثيرة، وكان لمصر أثر جد واضح فى شعرهم الذى قالوه أثناء مقامهم فى مصر.

من هؤلاء أبو نواس الذى وفد على مصر حوالى سنة ١٩٠هـ طامعًا فى عطاء الخصيب صاحب خراجها، ومدحه مدائح كثيرة كانت أولاها قصيدته التى يشير فيها بوضوح إلى الغرض من رحلته وهو طلب الغنى، وفيها يقول:

تقول التى عن بيتها خف مركبى ... عزيز علينا أن نراك تسير
أما دون مصر للغنى متطلب ؟ ... بلى ، إن أسباب الغنى لكثير
فقلت لها، واستعجلتها بوادر ... جرت، فجرى فى جريهن عبير
ذريني أكثر حاسديك برحلة ... إلى بلد فيه الخصيب أمير

وقد كثرت قصائده فى هذا المعنى، ومن أشهرها قوله:

أنت الخصيب ، وهذه مصر، ... فتدفقا ، فكلاكما بحر
لا تقعدا بى عن مدى أملى ... شيئًا ، فما لكما به عذر
ويحق لى إذا صرت بينكما ... ألا يحل بساحتى فقر

وقد ذكر السيوطى أن أدباء مصر وشعراءها تسابقوا للاجتماع بأبى نواس ومصاحبته وكتابة شعره، وفى ديوان أبى نواس إشارات لبعض المساجلات الشعرية التى دارت بينه وبين شعراء مصر:

ومن الشعراء الذين زاروا مصر الشاعر الهجاء دعبل الخزاعى، جاءها طامعًا فى نوال وال آخر من ولاة مصر هو المطلب بن عبد الله الخزاعى - وكان قريبًا له - ومدحه أولاً بقصيدته التى مطلعها:

أبعد مصر وبعد مطلب ... ترجو الغنى، إن ذا من العجب

وقد ولاه المطلب إقليم أسوان، فأقام به أيامًا ولكنه لم يرض عن مقامه به، فقد كان يطمع فيما هو أحسن، فهجاه، واضطر المطلب أن يعزله.

وكان ثالث الشعراء الطامعين فى غنى مصر وعطاء ولاتها الشاعر الكبير المتنبى، وقد أثار مجيئه إلى مصر نشاطًا أدبيًا كبيرًا فى الفسطاط، وشعره فى مدح كافور وهجائه أشهر من أن

يذكر، وقد انتقد شعره بعض أدباء الفسطاط، يقول ابن زولاق فى كتابه «أخبار سيبويه المصرى».

لما كان يومًا من الأيام، اجتاز المتنبى بمسجد ابن عمروس وسيبويه على المسجد، فقيل هذا سيبويه، فوقف عليه وقال: أيها الشيخ قد كنت أحب أن أراك، فقال له: رعاك الله وأبقاك وأراك محابك ، فقال له (المتنبى): بغنى أنك أنكرت قولى:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوا له ما من صداقته بد

فما كان الصواب عندك؟.

فقال له: العداوة ضد الصداقة، ولكن لو قلت:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدوا له ما من مداراته بد

وهذا رجل منا قد قال:

أتانى فى قميص اللاذ[1] يسعى عدو لن يلقب بالحبيب

فقال له المتنبى: مع هذا غيره؟.

فقال نعم:

فقلت له متى استعملت هذا ؟ لقد أقبلت فى زى عجيب

فقال: الشمس أهدت لى قميصا مليح اللون من شفق الغروب

فثوبى والمدام ولون خدى قريب من قريب من قريب

فتبسم المتنبى وانصرف، وسيبويه يصيح ويقول: انبكم [2].

وفى أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجرى، كانت فى الفسطاط نخبة من العلماء والأدباء والشعراء والمؤرخين، وكان لهم نشاط ملحوظ فى البحث والمساجلة والتدريس والتأليف، منهم: أبو القاسم بن قديد، وتلميذه أبو عمر الكندى - المؤرخ - وأبو جعفر النحاس المصرى الشاعر الكاتب، وأبو بكر محمد بن موسى الملقب بسيبويه المصرى، والحسن بن زولاق إلخ، وكتاب ابن زولاق «أخبار سيبويه المصرى» مفعم بالمساجلات الأدبية والعلمية التى كانت تدور بين أفراد هذه الجماعة المتازة فى صحن المسجد الجامع أو منازل الوزراء والكبراء والخاصة.

وقد وفد على مصر فى أواخر القرن الرابع الجغرافى والرحالة العربى المقدسى، ووصف فى كتابه «أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم» نشاط الحياة العلمية فى مساجد الفسطاط، قال:

---

(١) اللاذة ثوب حرير أحمر صينى، وجمعها لاذ.

(٢) أخبار سيبويه المصرى، ص ٤٥.

«وبين العشائين جامعهم مغتص بحلق الفقهاء وأئمة القراء، وأهل الأدب والحكمة، دخلته مع جماعة من المقادسة، فربما جلسنا نتحدث فنسمع النداء من الوجهين: دوروا وجوهكم إلى المجلس، فننظر فإذا نحن بين مجلسين، على هذا جميع المساجد، وعددنا فيه مائة وعشرة مجالس، فإذا صلوا العشاء أقام البعض إلى ثلث،.. ولا ترى أجمل من مجالس القراء به..» [1]

المدرسة العلمية:

وقد نشأت فى مصر إلى جانب هذه الحياة الدينية الأدبية حياة علمية خالصة هى فى الواقع استمرار للحياة العلمية التى كانت قائمة فى مصر فى العصور القديمة، وكانت أنشط ما تكون فى الإسكندرية، وقد عنيت هذه الحركة العلمية بعلوم الهندسة والطب والفلك والتنجيم.. إلخ، ونقلت الكتب القديمة عن القبطية واليونانية والسريانية، فكان معظم المشتغلين بها من النصارى واليهود، ثم انضم إليهم بعد قليل المسلمون الذين نبغوا فى هذه العلوم.

ومما يؤيد استمرار نشاط الحركة العلمية فى الإسكندرية بعد الفتح العربى ما ذكره ابن النديم فى الفهرست من أن الأمير خالد بن يزيد بن معاوية عندما أراد أن يتعلم الكيمياء أمر باستدعاء جماعة من الفلاسفة اليونانيين الذين كانوا يقيمون فى الإسكندرية، وأمرهم بنقل كتب الصنعة (أو الكيمياء) من اللغتين القبطية واليونانية إلى اللغة العربية، وكان هذا أول نقل إلى العربية فى الإسلام..

وذكر ابن أبى أصيبعة فى كتابه «طبقات الأطباء» أنه كان يوجد فى الإسكندرية فى العصر الإسلامى الأول طبيب إسمه ابن أبجر وكان يدرس بها، وكان عمر بن عبد العزيز يعتمد عليه فى صناعة الطب حين كان أمير أو بعد أن أصبح خليفة.

ويتحدث نفس المؤلف عن طبيب مصرى شهير اسمه «بليطيان» ويقول أنه كان عالمًا بشريعة المالكية، وقد دعاه الرشيد ليعالج إحدى جواريه - وكانت مصرية - فشفيت بعد علاجه لها، فوصله الرشيد بعطايا كثيرة، وكتب له منشورًا برد الكنائس التى أخذها اليعاقبة، وتوفى بليطيان سنة ١٨٦هـ.

وقد ازدهرت هذه الحركة فى عصر بنى طولون لتشجيعهم العلماء وعناية أحمد بن طولون بالحالة الصحية فى مصر، فقد أنشأ فيها أول بيمارستان أنشىء فى مصر الإسلامية، ونبغ فى عهده عدد من الأطباء المسيحيين والمسلمين، أشار إلى بعضهم البلوى، منهم الحسن بن زيرك، وكبير أطبائه سعيد بن توفيل[2].

---

(١) المقدسى. أحسن التقاسيم، ص ٢٠٥.

(٢) البلوى. سيرة أحمد بن طولون، ص ٣١٩ - ٣٢٥.

وتثبت المنشآت العمرانية الكثيرة التى أقامها أحمد بن طولون وابنه خمارويه مدى ما وصل إليه المهندسون فى الفسطاط والقطائع من تقدم علمى، وقد أشارت المراجع إلى المهندس الذى أشرف على بناء المنشآت الهامة التى أقامها أحمد بن طولون، وهى السقاية والعين والمسجد، واسمه سعيد بن كاتب الفرغانى، وذكر المقريزى أن ابن طولون غضب عليه مرة فسجنه، فلما أراد بناء مسجده قيل له إنه يحتاج إلى ثلاثمائة عمود، وتعذر الحصول على هذا العدد الكبير من الأعمدة، وبلغ هذا الخبر المهندس فى سجنه، فأرسل إليه من سجنه يقول: أنا أبنيه بلاعمد سوى عمودى القبلة، فاستدعاه ابن طولون، وعرض عليه سعيد مخطط المسجد كما صممه، فرضى عنه وكلفه ببناء المسجد فبناه [1].

وفى العصر الفاطمى والأيوبى تم ازدهار هذه الحياة العلمية فأينعت وأثمرت، وأصبحت الفسطاط مركز حركة علمية واسعة النطاق، وظهر فيها كثيرون من العلماء المصريين، كما وفد على مصر علماء وأطباء من مختلف بلاد العالم الإسلامى، مشرقة ومغربه.

ففى عصر الخليفة الحاكم نبغ طبيب يهودى مصرى شهر باسم «الحقير النافع»، ويروى القفطى أنه سمى بهذا الاسم لأنه كان جراحًا خاملاً، فأصيب الخليفة الحاكم بجرح خطير، وظل مدة طويلة دون أن يبرأ، رغم أن ابن مقشر وغيره من أطباء الخاص كانوا يبذلون الجهد لعلاجه، ثم أحضر له هذا الطبيب فشفى الجرح فى ثلاثة أيام، فأنعم عليه الحاكم بألف دينار، وخلع عليه وضمه إلى أطباء الخاص، ولقبه بهذا اللقب الذى شهر به «الحقير النافع».[2].

ونبغ فى الفسطاط فى عصر الحاكم كذلك على بن عبد الرحمن بن يونس بن عبد الأعلى المصرى المنجم - وقد أشرنا من قبل إلى والده المؤرخ - يقول القفطى فى ترجمته له: «كان والده عبد الرحمن بن يونس محدث مصر ومؤرخها، وأحد العلماء المشهورين بها وجده يونس بن عبد الأعلى صاحب الشافعى» [3]. وقد اشتغل على بن عبد الرحمن بن يونس بعلم الفلك والتنجيم علمًا وعملاً، وكان من المقربين للخليفة الحاكم.

وقد سبق ابن يونس العالم الإيطالى غاليليو إلى اختراع الرقاص (بندول الساعة)، يقول بهذا الأستاذ قدرى حافظ طوقان فى كتابه «العلوم عند العرب» معتمدًا على أقوال كثير من الباحثين الأوروبين الذين ألفوا فى تاريخ العلم فقد قال فى ص ١٤٢: «يعتقد الكثيرون أن الرقاص (بندول الساعة) من مخترعات العالم الإيطالى الشهير «غاليليو» وأن هذا العالم أول من استطاع أن يستعمله ويستفيد منه وهؤلاء الكثيرون قد يستغربون إذا قيل لهم إن هذا غير صحيح، وأن

---

(١) انظر: أحمد تيمور: أعلام المهندسين فى الإسلام، ص ٢٤

(٢) القفطى: إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ١٢٢ - ١٢٣.

(٣) نفس المرجع، ص ١٥٥.

الفضل فى اختراعه إلى عالم عربى مسلم، عاش فى مصر وعاش على ضفاف النيل، وقد سبق غيره فى استعماله فى الساعات الدقاقة، وبذلك يكون غاليليو مسبوقًا فى هذا الاختراع بستة قرون.

ويعتبر أبو سعيد عبد الرحمن بن يونس من فحول علماء القرن الخامس الهجرى (١١م) وأعظم فلكى ظهر فى تاريخ مصر الإسلامية، وقد عرف الخلفاء الفاطميون قدره فأجزلوا له العطاء وشجعوه وبنوا له مرصدًا خاصًا جنوبى الفسطاط يقوم فيه برصد الكواكب وإجراء بحوثه، وقد سجل نتائج بحوثه فى الزيج الذى وضعه بأمر من الخليفة العزيز وأئمة فى عهد خلفه، ولذلك نسب إليه وعرف بـ «الزيج الحاكمى»، وقد نشر العالم الفرنسى كوسان Caussin الأجزاء الباقية من هذا الزيج مع ترجمة فرنسية.

وفى عهد الحاكم كذلك وفد على مصر الحسن بن الهيثم المهندس والعالم الإسلامى الرياضى الكبير، وهو «صاحب التصانيف والتآليف المذكورة فى علم الهندسة، وكان عالمًا بهذا الشأن متقنًا له، متفننًا فيه، قيمًا بغوامضه ومعانيه، مشاركًا فى علوم الأوائل، أخذ الناس عنه واستفادوا منه» [١].

وقد نقل عنه مرة أنه قال: «لو كنت بمصر لعملت فى نيلها عملاً يحصل به النفع فى كل حالة من حالاته من زيادة ونقص» [٢]، وعلم الخليفة الحاكم بما قال، وكان يميل إلى هذا النوع من الأبحاث العلمية، واشتغل هو نفسه بعلوم الحكمة والفلسفة والتنجيم، فأرسل إليه مالا ورغبة فى الحضور إلى مصر، فلما حضر إليها خرج للقائه بنفسه خارج القاهرة، وزوده بما طلب من مال وعمال مساعدين، وتنقل ابن الهيثم فى مصر حتى وصل إلى جنادل أسوان، ولكن يبدو أنه لم يوفق لتنفيذ مشروعه، فخشى بأس الحاكم - وكان متقلبًا شديد البأس - فادعى الجنون وحجز فى منزله، وظل على ذلك إلى أن قتل الحاكم، فأظهر العقل ثانية وخرج من داره، غير أنه أقام بقية حياته متنسكًا فى الجامع الأزهر حتى مات سنة ٤٣٠ هجرية تقريبًا، وله مؤلفات كثيرة فى مختلف فروع علوم الرياضة وفى الفلك والفلسفة والطب [٣].. إلخ.

---

(١) القفطى، نفس المرجع، ص ١١٤.

(٢) القفطى، نفس المرجع، ص ١٢٤.

(٣) نفس المرجع، ص ١١٤ - ١١٦.

البـــاب الخامس

علاقات مصر بالخلافة

١ - الفتنة الكبرى .

٢ - ثورة عبد الله بن الزبير .

٣ - موقف المصريين من مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية .

٤ - الدعوة لبنى الحسن إبان ولاية يزيد بن حاتم على مصر .

٥ - الموقف أثناء النزاع بين الأمين والمأمون .

٦ - العلاقات بين مصر والخلافة العباسية فى عهد الطولونين .

٧ - الإخشيد والخلافة العباسية .

علاقات مصر بالخلافة

فتحت مصر فى عهد عمر بن الخطاب ، ومنذ ذلك الحين أصبحت ولاية من الولايات الخاضعة للخلافة الإسلامية ، غير أن مصر كانت تمتاز عن الولايات الأخرى بمركزها الجغرافى وثروتها وتاريخها وحضاراتها القديمة . ولهذا لم تقف من الخلافة موقفاً سلبيًا ، بل شاركت مشاركة فعلية فى جميع الأحداث السياسية التى خضعت لها الخلافة الإسلامية -- فى المدينة ، أو الكوفة ، أو دمشق ـ أو بغداد - وكان لاشتراكها أثر واضح فى النتائج التى انتهت إليها هذه الأحداث . وسنحاول فيما يلى أن نعرض لهذه الأحداث وللدور الذى لعبته مصر إبان حدوثها :

١ - الفتنة التى انتهت بقتل عثمان :

اتجه عثمان فى خلافته إلى تفضيل ذوى قرباه ، واستعمالهم على الولايات المختلفة . مما أثار غضب المسلمين ، فكثر النقد ، وأخذ أنصار على ومؤيدوه يعملون لتحويل الخلافة من عثمان إليه .

وكان على رأس الساخطين على سياسة عثمان الناقمين عليها وعلى معاوية -- عامله على الشام - أبو ذر الغفارى ، وهو صحابى ومحدث جليل عرف بالزهد والورع والتقوى . ولهذا راعه ما كان يراه من تكالب عمال الولايات من أقرباء عثمان وبعض كبار المسلمين على اقتناء العقار وادخار المال .

وظهر فى ذلك الحين أيضًا رجل من سكان اليمن اسمه عبد الله بن سبأ ، كان يهوديًا ثم أسلم. ويقال إنه تظاهر بالإسلام ليعمل على تقويض أركانه والتفرقة بين أتباعه. فقد ارتحل بعد إسلامه إلى أمصار الدولة الإسلامية، فزار الحجاز، وتركها إلى العراق فمر بالبصرة والكوفة ، ثم سافر إلى الشام ومصر، وكان فى كل هذه الولايات يثير الشكوك نحو سياسة عثمان ، ولم يجد أذنا تصغى إليه كما أصغى إليه أبو ذر عندما قابله فى الشام، فقد شكا إليه معاوية وسياسته فقال: (يا أبا ذر : ألا تعجب إلى معاوية يقول : المال مال الله ، ألا إن كل شىء لله، كأنه يريد أن يحتجبه دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين من ديوان العطاء) .

وهكذا ظل ابن سبأ يوغر أبى ذر ويحرضه ، وأبو ذر رجل طيب القلب ، متدين شديد الإيمان بتعاليم الإسلام ، فراح يحرض الفقراء ضد الأغنياء حتى استمعوا له ، والتفوا حوله ، وأخذوا يتحرشون بالأغنياء ، ويسيئون إليهم مما اضطرهم إلى الشكاية لمعاوية الذى رفع الأمر إلى عثمان .

بعث عثمان فطلب أبا ذر ، فلما وصله أمره أن يقيم فى الربذة - وهى قرية قريبة من المدينة- ولكن أبا ذر لم يهدأ ، بل واصل حملاته ضد عثمان وسياسته إلى أن مات سنة ٣١هـ .

ويجب علينا أن نفرق بين الدوافع التى كانت تدفع كلاً من الرجلين إلى إثارة الشعور فى العالم الإسلامى ضد عثمان ، فمن البديهى أن أبا ذر كان رجلاً سليم النية يريد بالحاكم أن يرجع دائمًا إلى تعاليم الإسلام ، وأن يتشبه فى سياسته بالرسول وكبار الصحابة فى العهد الأول . أما ابن سبأ فلم يكن سليم الغرض . بل كانت له ولمؤيديه فى الولايات المختلفة أغراض سياسة ترمى إلى قلب نظام الحكم القائم ، وتفريق كلمة المسلمين ، وقد ساعدتهم الظروف على تحقيق بغيتهم ، كما ساعدتهم الأخطاء الى وسمت بها سياسة عثمان ، والتى غالوا فى وصفها وتقدير خطورتها.

دخل ابن سبأ - بعد تركه الحجاز - إلى البصرة ثم إلى الكوفة حيث وجد الناس ناقمين على ولاة عثمان لاشتطاطهم فى جمع الضرائب ، فاتصل بالثائرين هناك وعقد معهم الاجتماعات الكثيرة وهو يزيد نار سخطهم اضطرامًا ، حتى لعن عثمان على ملأ من الناس.

ثم طرد ابن سبأ من المدينتين ، فذهب إلىالشام ، ولكنه لم يجد أحدًا يستمع إليه هناك غير أبى ذر. فالشام شيعة معاوية وأنصاره قد اصطنعهم بحسن سياسته ، ولهذا ترك الشام إلى مصر.

وقد ساعد ابن سبأ على نشر دعوته فى مصر ثلاثة من كبار الصحابة كانت نفوسهم ملأى بالسخط على عثمان وولاته وسياسته .

أما أولهم فهو محمد بن أبى حذيفة ، وكان هذا الرجل قد تربى فى كنف عثمان بعد وفاة أبيه ، فلما ولى عثمان الخلافة طلب ابن أبى حذيفة أن يلى بعض أمور المسلمين، فرفض عثمان ما طلب ، فقد وصله أنه يشرب الخمر فقال له: (لو كنت رضيًا لوليتك ، ولكنك لست هناك)[1] .

ثم اشترك محمد بن أبى حذيفة بعد ذلك مع عبد الله بن سعد بن أبى السرح - عامل عثمان على مصر - فى موقعة ذات الصوارى (٣١هـ / ٦٥١م) التى كانت بين المسلمين والبيزنطيين ، وفى هذه الموقعة حدث بين الرجلين خلاف شكلى ملخصه: أن ابن أبى حذيفة رفع صوته بالتكبير وهو يصلى العصر بالناس، فهناه ابن أبى السرح عن ذلك ، فلما كانت صلاة المغرب عاد ابن أبى حذيفة فرفع صوته بالتكبير ، فنهره ابن أبى السرح ، وهم بطرده من جيشه، فأسرها فى نفسه، ولما انتهت الموقعة عاد إلى الفسطاط، وانضم إلى ابن سبأ فى دعوته ضد

---

(١) الفاطميون فى مصر ، ص ١٨ .

عثمان أولاً ولعلى ثانيًا، وقد افتن ابن أبى حذيفة فى إثارة الشعور ضد عثمان وولاته ، فكان كما يقول الكندى: (يكتب الكتب على ألسنة أزواج النبى صلى الله عليه وسلم، ثم يأخذ الرواحل فيضمرها، ثم يأخذ الرجال الذين يريد أن يبعث بذلك معهم ، فيجعلهم على ظهور البيوت فيستقبلون بوجوههم الشمس لتلوحهم تلويح المسافر ، ثم يأمرهم أن يخرجوا إلى طريق المدينة بمصر ، ثم يرسلون رسلاً يخبرون بهم الناس ليلقوهم. وقد أمرهم إذا لقيهم الناس أن يقولوا: ليس عندنا خبز، الخبز فى الكتب . ثم يخرج محمد بن أبى حذيفة والناس كأنه يتلقى رسل أزواج النبى - صلى الله عليه وسلم - فإذا لقوهم قالوا: لا خبر عندنا عليكم بالمسجد، فيقرأ عليهم كتب أزواج النبى، فيجتمع الناس فى المسجد اجتماعًا ليس فيه تقصير، ثم يقوم القارئ بالكتاب فيقول: إنا لنشكو إلى الله وإليكم ما عمل فى الإسلام وما صنع فى الإسلام. فيقوم أولئك الشيوخ من نواحى المسجد بالبكاء..)[1].

وصلت هذه الأخبار إلى عثمان ، فحاول أن يصلح بينه وبين حذيفة فأرسل إليه كسوة وثلاثين ألف درهم ، ولكن ابن أبى حذيفة كان رجلاً موتورًا ، فاشتد فى اللجاج، وانتهز فرصة هذه الهدية ليرتفع فى أعين الناس وليزيدهم كرها فى عثمان ، فأظهر الهدية للناس فى المسجد وخاطبهم قائلاً:

(يا معشر المسلمين ، ألا ترون أن عثمان يخادعنى دينى ويرشدنى ؟)[2].

وحاول عثمان محاولة ثانية ، فبعث إلى مصر سعد بن أبى وقاص لينظر فى أمر ابن أبى حذيفة والخارجين معه عله يرضيهم ، وسمع ابن أبى حذيفة بمقدمه، فخطب الناس وقال: (ألا إن الكذاب كذا وكذا قد بعث إليكم سعد بن مالك ليفل جماعتكم ويشتت كلمتكم ويوقع التخاذل فيكم فانفروا إليه)[3]. وخرج معه نحو مائة رجل فوجدوا ابن أبى وقاص مقبلاً فى فسطاطه ، فقلبوه عليه وشجوه وسبوه ، فركب راحلته وعاد من حيث أتى .

أما ثانى هؤلاء الثلاثة ابن أبى بكر ، فقد دفعه إلى الانضمام لشيعة على ما كان بينه وبين على من ناحية، وبين الحسين بن على من ناحية أخرى من صلة النسب ، وذلك أن عليًا قد تزوج بأسماء بنت عميس أم محمد بن أبى بكر بعد وفاة الصديق، وكذلك كان محمد والحسين زوجين لابنتى يزدجرد الثالث آخر ملوك بنى ساسان من الفرس.

---

(١) الكندى : ١٤ -١٥ . وقد وردت هذه الرواية أيضًا فى المقريزى. الخطط ١٤٧/٤ مع اختلاف يسير فى بعض الألفاظ .

(٢) حسن إبراهيم : الفاطميون فى مصر ، ص ١٩ .

(٣) الكندى . ص ١٦.

وأما ثالثهما وهو عمار بن ياسر ، فقد وفد على مصر رسولاً من قبل عثمان لدراسة الحالة والبحث فى أسباب تذمر الناس ، ولكن ابن سبأ وشيعته استمالوا عمارًا ، فانضم إليهم ولم يعد، وقد يكون السبب فى ذلك أن عثمان كان قد أدب عمارًا - وهو الصحابى الجليل - لقذف بدر منه فى حق عباس بن عتبة بن أبى لهب .

وعندما اشتدت الثورة فى الولايات ضد عثمان ذهبت وفود مختلفة إلى المدينة لتقديم الشكوى إلى الخليفة نفسه . وكلنا نعرف الدور الخطير الذى لعبه وفد مصر فى الشكاية لعثمان ثم فى الثورة ضده وحصاره فى بيته إلى انتهى الأمر بقتله .

وكان عبد الله بن سعد بن أبى السرح هو والى مصر عندما بدأت الشكوى ضد عثمان، فخرج منها إلى المدينة لمقابلة عثمان، واستخلف على مصر عقبة بن عامر الجهنى . فلما اشتدت الثورة فى مصر، خرج الأمر من يد عقبة وأصبح فى يد محمد بن أبى حذيفة، ثم عاد عبد الله بن سعد إلى مصر بعد قليل، فلما وصل القلزم خرجت عليه جنود ابن أبى حذيفة ومنعوه من الدخول إلى مصر، فانصرف عنها إلى عسقلان فى الشام، وهناك سمع بمقتل عثمان .

٢ - ثورة عبد الله بن الزبير :

وفى خلافة يزيد بن معاوية ثار عبد الله بن الزبير فى الحجاز وطلب الخلافة لنفسه، وأيده فى موقفه جماعة من أهل مصر، وأرسلوا إليه وفدًا منهم يسأله أن يبعث إليهم بأمير، يقومون معه ويؤازرونه)[1] ، فبعث إليهم ابن الزبير بعبد الرحمن بن جحدم واليًا، فقدم إليها فى طائفة من الخوارج، فوثبوا على والى مصر من قبل يزيد - وهو سعيد بن يزيد بن علقمة - وعزلوه ، وفى هذه الأثناء توفى يزيد بن معاوية وولى الخلافة مروران بن الحكم، فخرج إلى مصر فى جيش من أهل الشام ، واستعد عبد الرحمن بن جحدم وحفر خندقًا حول الفسطاط ليدافع عن المدينة من ورائه ، وبعد أن طالت الحرب بين الفريقين شهورًا سعى فى الصلح بينهما ، ودخل مروان مصر فى أول جمادى الأولى سنة ٦٥هـ، وعزل ابن جحدم بعد أن حكم مصر تسعة أشهر، ووليها من بعده عبد العزيز بن مروان من قبل أبيه .

٣ - موقف المصريين من مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية :

ولما هزم مروان بن محمد أمام جيوش العباسيين ، عزم على الفرار إلى مصر. ولكن جند مصر أجمعوا على منعه إن هو سار إليها[2] وأتى مروان ، فاستمال إليه أهل الحوف الشرقى وسودهم واستعان بهم. وثارت ضده فتن فى بعض بلاد مصر كرشيد والكربون فأخضعها، ثم تبعته جيوش العباسيين بقيادة صالح بن على العباسى ، وتتبعه حتى قتل فى بوصير سنة ١٣٢هـ .

---

(١) الكندى : ص ٤٢.

(٢) الكندى : ص ٤٢.

٤ - الدعوة لبنى الحسن :

وفى ولاية يزيد بن حاتم على مصر (١٤٤هـ - ١٥٢هـ) من قبل أبى جعفر المنصور ظهرت فى مصر الدعوة لبنى الحسن بن على ، وبايع الناس عليًا بن محمد بن عبد الله بن الحسن بن عبد الله بن الحسن بن على، وأحكم أنصاره المؤامرة، وسطوا على بيت المال فى مسجد عمرو فى الليل ، غير أن رجلاً منهم أبلغ الوالى خبرهم ، فأرسل إليهم بالجند، فقبضوا على نفر منهم واختفى البعض الآخر . أما على بن محمد صاحب الدعوة ، فاختلف الرأى فيه، فقيل إنه حمل إلى أبى جعفر، وقيل إنه اختفى حتى مات فى عهد المهدى .

٥ - الموقف أثناء النزاع بين الأمين والمأمون :

ولما قام النزاع بين الأمين والمأمون ، اختلف الناس والجند فى مصر وتكلموا فى خلع الأمين وتولية المأمون (وكتب المأمون إلى أشراف أهل مصر يدعوهم إلى القيام بدعوته فكلهم أجابوا سرًا)[1]. وكان عباد بن محمد بن حيان هو داعية المأمون فى مصر ، فجمع الجند فى المسجد الجامع ودعاهم إلى خلع الأمين ، فأجابوه وبايعوا المأمون فى الثامن من رجب سنة ١٩٦هـ . وأبعد جابر بن الأشعث والى مصر من قبل الأمين، ووليها عباد بن محمد بن حيان من قبل المأمون.

وعلم الأمين بما حدث ، فكتب إلى ربيعة بن قيس الجرشى - رئيس القبائل القيسية بالحوف - بولايته على مصر ، وكتب إلى شيوخ القبائل النازلة بالحوف بمساعدة قيس ، فأظهر أهل الحوف جميعا - يمنًا وقيسًا - الولاء لمحمد الأمين وساروا بقيادة ربيعة إلى الفسطاط فى آخر ربيع الآخر سنة ١٩٧هـ لمحاربة أهلها وجندها ، فخندق عباد على الفسطاط، وحدثت معارك بين الفريقين كان النصر فيها لأنصار الأمين، وقبض على عباد ، وأرسل إلى الأمين فقتله. وبعد قليل قتل الأمين ، وبويع للمأمون فى المحرم من سنة ١٩٨هـ، فتفرق أهل الحوف وهدأت الفتنة . وولى على مصر المطلب بن عبد الله من قبل المأمون .

٦ - العلاقة بين مصر والخلافة العباسية فى عهد الطولونيين :

ولى أحمد بن طولون على مصر نائبًا عن بقبق - أو باكباك - ثم لم يلبث أن عهد إليه بولايتها ، وكان ابن طولون رجلاً طموحًا . فسعى للاستقلال بمصر، واستطاع أن يتغلب على الصعاب الكثيرة التى اعترضت سبيله، واتخذ لنفسه جيشًا قويًا بلغ ١٠٠,٠٠٠ جندى من المصريين والروم والأتراك والسودانيين، وعنى بالأسطول أيضًا . فبنى دار الصناعة فى الجزيرة .

---

(١) الكندى - ص ٤٨ .

وفى سنة ٢٥٦هـ ولى الخلافة العباسية الخليفة المعتمد ، وكان محبا للهو ، فقسم مملكته قسمين ، وعهد بإدارة القسم الشرقى لأخيه الموفق طلحة ، كما عهد بإدارة القسم الغربى لابنه جعفر ولقبه المفوض إلى الله. وفى سنة إحدى وستين عهد بولاية العهد من بعده لابنه المفوض إلى الله جعفر ثم من بعده لأخيه الموفق طلحة ، (وولى ولده المغرب ومصر والشام والجزيرة وأرمينية ، وولى أخاه المشرق والعراق وبغداد والحجاز واليمن وفارس ، وأصبهان، والرى، وخراسان، وطبرستان، وسجستان والسند)[1] وعلق العهد فى الكعبة .

وفى ذلك العهد نشبت ثورة الزنج فى القسم الشرقى من الدولة العباسية، وادعى قائدها على بن محمد بن عبد الرحيم أنه من سلالة زيد بن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب، واشتدت ثورتهم حتى دخلوا البصرة فى سنة ٢٥٤ هـ (٨٦٨ م) وخربوها. وبذل الموفق جهده للقضاء على هذه الثورة، ولكن إيرادات هذه القسم الشرقى لم تف بنفقات الجند، وعلى الرغم من أن مصر لم تكن جزءًا من القسم الشرقى الخاضع للموفق فقد أرسل الموفق خطابًا لابن طولون يصف له خطر الزنج وثورتهم ويسأله أن يرسل له من المال ما يمكنه من القضاء على هذه الثورة.

وعلم ابن طولون فى نفس الوقت أن رسل الموفق كانوا يحملون كتبًا من الموفق لقواده يحرضهم فيها على الخروج على ابن طولون ومعه هذا آله ما كان من ثورة الزنج وأرسل للموفق ١,٢٠٠,٠٠٠ دينارا وهدايا كثيرة:

ويبدو أن الموفق كان يحقد على أخيه المعتمد ويطمع فى الخلافة، ولم يكن راضيًا أيضًا عن تولية القسم الشرقى، لأن القسم الغربى أغنى وأفضل، فلم يقنع بالمبلغ الذى أرسله إليه ابن طولون، وأرسل يطلب منه مزيدًا، ثم حاول أن يعزله عن مصر.

لم يلتفت ابن طولون إلى طلب الموفق، وإنما أرسل إليه خطابًا يعلن فيه أنه لا علاقة تربطه به وأنه يلى مصر بأمر الخليفة المعتمد، قال فى هذا الخطاب: «أما بعد، أطال الله بقاء الأمير وأدام عزه، فقد وصل إلى كتاب الأمير - أيده الله - وفهمته، وقد كان الأمير - أسعده الله - حقيقا بحسن التخير لنفسه وإعمال الفكر فيما ينتظم به أسباب الصلاح يدركه، وأن تؤديه رؤيته إلى إمالة مثلى، إذ كنت باب السلطان وسيفه الذى يصون به، وسنانه الذى يتقى الأعداء بحده.. على أنى لا أعرف السبب الذى يتيح الوحشة ويوقعها، ولا الأمر الذى يدعو إليها ويوجبها، إذ لم يكن بينى وبينه معاملة توجب مشاجرة أو تحدث منافرة، وكأن العمل الذى أنا بسببه ليس له، والمكاتبة فى أموره ليست إليه، وتقليدى ليس من قبله، ولا أنا من ولاته،.. ولم يضطرنى بهذه الأبحاث التى لا أعرف دركًا فى استعمالها وحظًا فى

---

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٤٢-٢٤٣.

ارتيادها . . . إلى ركوب خطة في أمره قد علم الله كراهيتي في ركوبها، وإلى أن أجعل ما أعددته لحياطة هذه الدولة المتكاثفة والعساكر المتضاعفة، على أنه (أى الموفق) لا ناصر له غير من يجتمع إليه من لفيف المتعبدة وأدناس العامة. وليس مثل الأمير - أيده الله - في أصالة رأيه وحسن تدبيره، ونظره في عواقب أموره قصد لمائة ألف عنان هي عدة له فجعلها عليه . . .»[1].

فلما وصل هذا الخطاب إلى الموفق غضب وطلب من قائده موسى بن بغا[2] أن يسير لعزل ابن طولون عن مصر، وعين ماجور - حاكم الشام - والياً على مصر بدلاً منه. غير أن ماجور لم يرسل قرار تعيينه لابن طولون لأنه لم يكن من القوة بحيث يستطيع التغلب على جيوش مصر، أما موسى بن بغا فقد سار إلى الرقة وبدأ يتخذ الأهبة ويعد العدة لعزل ابن طولون بقوة الجيش. وعلم ابن طولون بما يفعل ابن بغا، فحصن الفسطاط وبنى قلعة ليحتمي بها في الجزيرة، وأنشأ أسطولا يتكون من «مائة مركب حربية سوى ما يضاف إليها من العشاريات وغيرها . . .»[3] غير أن جند ابن بغا لم يلبثوا أن ثاروا ضده بعد شهور وطالبوه بأعطياتهم، فاضطر إلى العودة إلى بغداد حيث مرض، فحمل إلى سامرا ومات بها بعد شهرين (صفر ٢٦٤ هـ).

لم ييأس الموفق بل سعى لدى الخليفة المعتمد وطلب منه أن يعزل ابن طولون عن ولاية الثغور الشامية، ففعل مضطرًا، ولكنه اضطر بعد قليل أن يعيده إليها، فقد عجز الولاة الآخرون عن المحافظة عليها.

وسعى ابن طولون - في نفس الوقت - لمد أملاكه في الشام، فعند موت ماجور أناب ابن طولون ابنه العباس عنه في حكم مصر، وخرج إلى الشام بجنده وأستولى على الرملة ودمشق وحمص وأنطاكيه (في سنة ٢٦٥ هـ)، وامتد نفوذه حتى الرقة، وذكر اسمه في الخطبة بعد اسم الخليفة في هذه البلاد، غير أنه اضطر للعودة سريعًا إلى مصر للقضاء على ثورة ابنه العباس.

وبعد إخضاع ثورة العباس، أناب عنه ابن طولون ابنه خمارويه وسار ثانية إلى الشام، فقد بدأ يفكر حينذاك في انقاذ الخليفة المعتمد من سيطرة أخيه الموفق عليه، ثم فكر لأول مرة في تاريخ مصر أن ينقل مركز الخلافة إليها فيزيد بذلك في مجده ويقوى نضاله ضد عدوه الموفق، ويذكر ابن الداية أنه كتب للخليفة الخطاب التالى :

«قد منعنى الطعام والشراب والنوم خوفى على أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - من مكر يلحقه . . . وقد اجتمع عندى مائة ألف عنان، مؤلفة قلوبهم، مجتمعة آراؤهم؛ شديد بأسهم،

---

(١) ابن الداية: سيرة ابن طولون، ص ٢١ - ٢٤.

(٢) الكندى: ص ٢١٧ - ٢١٨.

(٣) السيوطى: حسن المحاضرة، ٢/ ١٩٩

وأنا أرى لسيدى أمير المؤمنين. أدم الله عزه بالنصر والتمكين والانجذاب إلى مصر فان أمره يرجع بعد الامتهان إلى نهاية العز، ولا يكن فيه ما يخافه فى كل لحظة منه عليه . . .»[1].

وفى نفس الوقت كان الخليفة قد اشتد به الضيق إذ أصبحت السلطة كلها فى يد أخيه الموفق وأصبح هو كالمحجور عليه، ويروى أنه احتاج مرة إلى ٣٠٠ دينار فلم يستطع الحصول عليها وأنشد هذه الأبيات:

أليس من العجائب أن مثلى ... يرى ما قل ممتنعا عليه

وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا ... وما من ذاك شىء فى يديه

إليه تحمل الأموال طرا ... ويمنع بعض ما يجى إليه

لهذا فكر المعتمد فى نفس الوقت أن يلجأ لابن طولون ويحتمى به، وانتهز فرصة انشغال أخيه بالحرب مع الزنج وخرج من سامرا فى سنة ٢٦٩ هـ بحجة النزهة للصيد، وأراد الاتجاه إلى الشام لمقابلة أحمد بن طولون.

وعلم الموفق بخروج أخيه فأرسل إلى إسحاق بن كنداج - والى الموصل والجزيرة - يأمره أن يسعى لرد الخليفة إلى بغداد، ووعده إن نجح فى مسعاه أن يقطعه إقطاعًا ويصله بالمال، فخرج ابن كنداج يدفعه الحسد لابن طولون والطمع فى الإقطاع والمال، ودخل الموصل فعلم بأن الخليفة رحل عنها، فتابعه حتى لحقه بين الموصل والحديثة، فاستأذن فى مقابلته وطلب منه العودة إلى عاصمته، وجرى بينهما الحديث الآتى:

قال ابن كنداج: أخوك فى وجه العدو، عدوك وعدو دولتك، يقف على زوالك، عن مستترك، ومدينة آبائك، فينصرف عن مقاومته، ويخلى بينه وبين دار ملكك، وبهذا جاء كتابه».

فقال له المعتمد: «أفغلامى أنت أم غلامه؟» فقال: «كلنا يا أمير المؤمنين غلمانك ما أطعت الله، فإذا عصيته فلا طاعة لك علينا». فقال له: «وما معصيته؟». فقال: «تخليك عن دار ملكك ودار آبائك، وتركك أخاك وهو مجاهد عنك وعن دولتك لعدوك، فتظعن عن مستقرك وفى هذا عصيان الله عز وجل»[2].

وخرج ابن كنداج فقد قواد الخليفة وعاد به إلى سر من رأى، وهناك قابله أخوه الموفق فأنزله دارًا خاصة، ووكل به قائدًا فى خمسمائة رجل يمنعون أن يدخل إليه أحد.

---

(١) ابن الداية: ص ٦٨- ٦٩.

(٢) انظر الكندى. ص ٢٢٥.

وقال ابن كنداج مكافأته وخلع عليه، ولقب بذى السيفين، وعقد له الموفق على مصر مكان أحمد بن طولون، وأقطع ضياع القواد الذين خرجوا مع المعتمد[1].

وعلم ابن طولون - وهو فى دمشق - بهذا كله، فثارت ثائرته، فجمع الفقهاء والقضاء فى دمشق فى سنة ٢٦٩هـ واستفتاهم فى خلع أبى أحمد الموفق، فأفتوا جميعًا بخلعه إلا قاضيه بكار بن قتيبه، فلم يلتفت إليه ابن طولون وكتب كتاب الخلع من عدة نسخ، وأرسله إلى كل عمل من أعماله ليتلى على المنابر[2]، وأمر كذلك بأن يمحى اسم الموفق من الطرز التى كتبت قبل ذلك ولا تكتب فيما يستأنف. فلم يبق بمصر ولا بنواحيها ثوب على طرازه اسم الموفق إلا نقض.

وبلغ الموفق ما فعله ابن طولون من إسقاط اسمه وترك الدعاء له، فأمر بلعنه على المنابر، «وخرجت براءة اللعنة إلى سائر الأمصار جميعا»[3]، وكان مما لعن به «اللهم العنه لعنًا يفل حده، ويتعس جده، واجعله مثلا للغابرين. إنك لا تصلح عمل المفسدين»[4].

ويبدو أن الموفق لم يكن يتوقع أن يصل العداء بينه وبين ابن طولون إلى هذا التقاطع والتنابذ والتلاعن، ففكر فى تحسين العلاقات بينه وبين ابن طولون ثانية، وندب لذلك كاتبه صاعد بن مخلد وجماعة من خاصته وأمرهم أن يكتبوا لابن طولون كتابًا يعاتبونه فيه على المبادرة بخلع الموفق وإسقاط اسمه من الخطبة، وذكروا له فى الكتاب «أنه إنما كان يجب أن تفعل ذلك لو رأيت بالخليفة حادثًا فأما ولم يجر إلا منع أمير المؤمنين من فعل شىء آثره، لو بلغه لعاد عليه وعلى مملكته ضرر، فذلك غير منكر يوجب ما تسرعت إليه»[5].

وقالوا له أيضًا على لسان الموفق: «وأنه قد كان يجب عليك أن تصون نفسك عن سوء الظن بنا فى أننا نستجيز أن نحدث فى أمير المؤمنين حادثة، نبرأ إلى الله الكريم منها.. وأن اللعن الذى خرج عن غير إرادة منى ولا محبة ولا اختيار، وإنى لكاره لما جرى من ذلك[6].

ثم أشاروا على ابن طولون فى نهاية الخطاب بأن يكتب للموفق بما يزيل من نفسه ما تركه العداء فيها من أثر فقالوا: «إن الأحسن بك والأجمل، لما خصك الله به من الفضل، والمحل الجليل، والمروءة المقرونة بالدين، أن تكتب إليه تذكر فيه ما أنت مؤثر له من طاعته، وما توجه

---

(١) البلوى: سيرة ابن طولون، ص ٢٩٢.

(٢) انظر نسخة الخلع فى البلوى، ص ٢٩٥، ٢٩٧.

(٣) انظر نفس البراءة فى البلوى، ص ٢٩٩.

(٤) الكندى: ص ٢٢٩.

(٥) البلوى: ص ٣٠٣.

(٦) البلوى: ص ٣٠٣.

من حقه ورعايته، وما يشاكل ذلك مما أنت بجميل فعلك ووافر تحصيلك أهدى إليه إن شاء الله[٦]».

وتلقى أحمد بن طولون هذه الكتب ففرح بها، لأنه علم أنها صدرت بأمر الموفق، وأجاب عليه بقوله إن «الموفق أحد مواليه، وأنه إنما انحرف عنه لحصره الخليفة، وأسره إياه، وأنه لو خلاه مع اختياره، وأزال عنه الموانع التى ألزمه إياها، ولم يحل بينه وبين أمره ونهيه، وامتثل أمره على رسمه كان، ولم ينحرف عن طاعته، ولا عدل عن محبته وإرادته، لكل كبعض خدمه، وأن جميع ما فى يده من مال عمله محفوظ للخليفة، وإن أقام على ما هو عليه من حصره إياه فى يده وتوكيله به، حاربت عنه ولو لم يبق معى أحد، فإنى أرجو أن أرزق الشهادة على حسن الطاعة[١].

وسر الموفق بهذا الرد فقد وجد أن ابن طولون لم يقدم على فعلته إلا محافظة على ولائه للمعتمد، وعلم أنه مستعد أن يعترف له بالولاء ثانية إن هو رفع الحصار عن الخليفة، فأسرع ونقله إلى قصره، وأزال الموكلين عليه، ومنع التشديد فى المراقبة، وكتب إليه يذكر أنه ما لعن ابن طولون إلا مضطرًا، وأنه لنادم على ما فعل، ثم طلب من الخليفة المعتمد أخيرا أن يكتب إلى ابن طولون «بما يزول به ما بينهما»[٢]. فرحب المعتمد بهذا الطلب وكتب إلى أحمد بن طولون كتابًا بخطه شكره فيه على حسن طاعته وتفانيه فى ولائه، وذكر له ما فعله الموفق أخيرًا من إطلاق سراحه وحسن معاملته، وطلب منه أخيرًا أن يعيد الدعوة للموفق على المنابر وإثبات اسمه على الطرز، وأرسل الكتاب إلى ابن طولون مع رسول خاص ومعه خطاب الموفق بخطه إلى المعتمد، وفيه يعترف بإسقاط اللعن عن أحمد بن طولون، وسار الرسول فى طريقه؛ ولكنه لم يكد يبلغ الرقة حتى وصلته الأخبار بوفاة أحمد بن طولون، فعاد ثانية إلى بغداد.

خمارويه والخلافة العباسية:

ولى خمارويه حكم مصر سنة ٢٧٠ هـ، وفى نفس السنة أرسل جيشًا إلى الشام بقيادة أبى عبد الله أحمد بن محمد الواسطى، ولم يكد الواسطى يصل إلى فلسطين حتى فكر فى الخروج على خمارويه، لأنه خشى أن يوقع به لأنه سبق أن أشار عليه بقتل أخيه العباس، وكتب الواسطى كتابًا إلى أبى العباس أحمد المعتضد بن أبى الموفق ضمنه أبياتًا من الشعر وصغر له فيه أمر خمارويه وحضه على المسير إليه، وخرج أبو العباس أحمد بن الموفق من بغداد ومعه جيشه وقواده واستولى فى طريقه على قنسرين وشيزر حتى وصل دمشق ودخلها، وعلم خمارويه بما حدث، فخرج من مصر فى جيش عظيم (فى صفر سنة ٢٧١ هـ) وتقابل الجيشان عند نهر

(١) البلوى: ص ٣٠٤.

(٢) البلوى: ص ٣٠٥.

أبى فطرس - فى فلسطين - فهزم جزء من جيش خمارويه كان يقوده هو بنفسه، فكر راجعًا إلى الفسطاط غير أن كمين الجيش المصرى خرج بقيادة سعد الأيسر وهم لايعلمون بهزيمة خمارويه وفراره، وانقضوا على جيش أبى العباس حتى هزم وارتد إلى دمشق فلم تفتح له. وتقدم سعد الأيسر - مع الواسطى - فدخلا دمشق ودعوا فيها لخمارويه.

وخرج خمارويه ثانية من الفسطاط فى ذى القعدة سنة ٢٧٢ هـ وتقدم حتى دخل دمشق فى المحرم سنة ٢٧٣ هـ، ثم تركها متتبعًا جيوش أبى العباس بن الموفق حتى هزمها، وبلغت أوائل جيشه سر من رأى.

وفى ذلك الحين سفر قوم بين خمارويه وبين إسحاق بن كنداج قائد أبى العباس، فاصطلحا وتصاهرا، وانضم إسحاق إلى خمارويه.

ثم كاتب خمارويه أبا أحمد الموفق، وسأله الصلح على مال يبذله له، فوافق أبو أحمد الموفق. وقدم رسول الموفق بشروط الصلح إلى الفسطاط فى رجب سنة ٢٧٣ هـ، وأهم ما فيها اعتراف المعتمد وأبى أحمد الموفق وابنه أبى العباس - بخط أيديهم - بولاية خمارويه وولده على مصر والشامات لمدة ثلاثين سنة، فأمر خمارويه بإعادة الدعاء لأبى أحمد الموفق وترك الدعاء عليه[١].

وفى سنة ٢٧٨ هـ مات أبو أحمد الموفق، فعقد بولاية العهد لابنه أبى العباس. وفى سنة ٢٧٩ هـ توفى الخليفة المعتمد وبويع بالخلافة أبو العباس بن أبى أحمد الموفق، ولقب بالمعتمد، فبعث إليه خمارويه بالهدايا، وفى شهر ربيع الأول سنة ٢٨٠ هـ وصل إلى مصر كتاب المعتضد بولاية خمارويه وولده ثلاثين سنة «من الفرات إلى برقة، وجعل إليه الصلاة والخراج والقضاء وجميع الأعمال على أن يحمل فى كل عام من المال مائتى ألف دينار عن ما مضى، وثلاثمائة ألف عن كل عام للمستقبل»[٢].

وفى شهر رمضان من نفس السنة وصل إلى مصر رسول المعتضد ومعه الخلع «وهى اثنتا عشرة خلعة وسيف وتاج ووشاح».

وفى السنة التالية (٢٨١ هـ) عقد للخليفة المعتضد[٣] على قطر الندى بنت خمارويه، فحملها إليه مع أبى عبد الله بن الجصاص «وحمل معها ما لم ير مثله ولا سمع به، منه دكة أربع قطع ذهب، عليها قبة ذهب مشبكة، فى كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة من الجوهر لا يعرف لها قيمة»[٤].

---

(١) انظر الكندى: ص ٢٣٨.

(٢) الكندى: ص ٢٤٠.

(٣) ذكر أبو المحاسن: النجوم ٣٠/ ٥٣، أن خمارويه عرض على المعتضد أن يزوج ابنته قطر الندى من ابنه المكتفى بالله، فطلبها المعتضد لنفسه وقال: «بل أنا أتزوجها»

(٤) ابن دقماق ٤/ ٦٧.

وانظر: Hassan Ibrahim: Relations between Egypt and the Caliphate. P. 14 – 15.

ويبدو أن الخلافة العباسية عندما يئست من إخضاع دولة بنى طولون بالقوة لجأت إلى إضعافها بالسياسة. فإنه يقال إن المعتضد أراد بزواجه من قطر الندى «أن يفقرأ بأها خمارويه في جهازها»[1]، يقول أبو المحاسن: «وكذا وقع، فإنه جهزها بجهاز عظيم يتجاوز الوصف، حتى قيل: إنه دخل معها في جملة جهازها ألف هاون من الذهب»[2]. كذلك أمر خمارويه - بعد أن فرغ من جهاز ابنته أن يبنى لها على رأس كل منزلة تنزل فيها قصر فيما بين مصر وبغداد . . . فكانت إذا وافت المنزلة وجدت قصرًا قد فرش، فيه جميع ما تحتاج إليه، وقد علقت فيه الستور، وأعد فيه كل ما يصلح لمثلها، وكانت في مسيرها من مصر إلى بغداد، على بعد الشقة، كأنها في قصر أبيها»[3]. ثم ولى على مصر أبو العساكر جيش بن خماروه بعد موت أبيه في سنة ٢٨٢هـ. غير أنه لم يلبث أن وثب بعمه نصر بن أحمد بن طولون فقتله، فاجتمع قواد جيشه وخلعوه انتقامًا لعمه، وبايعوا أخاه هارون بن خمارويه، وبهذا لم يمكث أبو العساكر في الولاية إلا تسعة أشهر، وقد أودع السجن بعد خلعه فمات به بعد أيام.

وفي سنة ٢٨٨ هـ مات الخليفة المعتضد، وبويع بالخلافة بعده ابنه أبو محمد، ولقب بالمكتفي بالله، وفي عهده ساءت العلاقات بينه وبين هارون، فأرسل المكتفي جيشًا إلى مصر بقيادة محمد بن سليمان الكاتب، كما أمر دميانه - أمير البحر بثغور الشام - أن يسير بسفنه إلى مصر. وتقدم محمد بن سليمان حتى نزل حمص، فكتب إليه بدر الحمامي - والي هارون على الشام - بالسمع والطاعة، ثم واصل محمد بن سليمان سيره إلى فلسطين، فتقدم إليه وصيف بن صوارتكين بالسمع والطاعة أيضًا.

وصلت هذه الأخبار إلى مصر، فأخذ هارون يعد العدة للاقاة عدوه، وأرسل أسطوله لقتال الأسطول العباسي عند تنيس، غير أن الأسطول العباسي انتصر، واستولى على تنيس ودمياط، وتقدمت سفنه في النيل متجهة نحو الفسطاط.

وشغل هارون باللهو والطرب، وتفرق عنه نفر من جنده، فأجمع عماه شيبان وعدى ابنا أحمد بن طولون على قتله، وقتلاه في صفر من سنة ٢٩٢ هـ، وبايع الجند شيبان بالولاية، فاسر إلى الفسطاط، وبدأ يجمع جيشه ويستعد لملاقاة الجيش العباسي، غير أنه لم يلبث أن علم بتفرق كبار قواده عنه وانضمامهم إلى محمد بن سليمان، كما علم أيضًا بوصول الأسطول العباسي

---

(١) النجوم الزاهرة ٣/ ٥٣.

(٢) النجوم الزاهرة ٣/ ٥٣.

(٣) النجوم ٣/ ٦٢ - ٦٣.

إلى ساحل الفسطاط، فأرسل هو أيضًا إلى محمد بن سليمان يطلب منه الأمان لنفسه وأخوته وأهله، فأمنهم.

ودخل محمد بن سليمان الفسطاط فى ربيع الأول من سنة ٢٩٢ هـ، وأمر بإحراق القطائع فأحرقت، ودعى على المنابر للخليفة المكتفى بالله وحده، ثم «أخرج . . . قواد بنى طولون ومواليهم وقتًا بعد وقت فلم يبق بمصر منهم أحد يذكر . . .»[1].

وهكذا فشلت المحاولة الأولى للاستقلال بمصر بعد أن ظل النزاع شديدًا بين الخلافة العباسية وولاة مصر من الطولونيين طول عهد هذه الأسرة، وعادت مصر ولاية تابعة للخلافة مرة أخرى، وولى محمد بن سليمان على خراجها أبا على الحسين بن أحمد المادراتى، وولى على صلاتها عيسى النوشرى.

٧ - الأخشيد والخلافة :

فى سنة ٣٢٣ هـ ولى مصر محمد بن طغج الإخشيد، وكان قائدًا شجاعًا طموحًا، فاتخذ لنفسه جيشاً قويًا بلغت عدته أربعمائة ألف جندى، عدا حرسه الخاص، وكان يبلغ عددهم ثمانية آلاف مملوك، ثم أنشأ فى سنة ٣٢٥ هـ دارًا للصناعة بساحل الفسطاط بنى فيها سفنًا كثيرة، وانتهز الإخشيد فرصة ضعف الخلافة العباسية واستقل بمصر داخليًا، ولم يبق بين مصر والخلافة فى عهده غير العلاقات الاسمية من خطبة باسم الخليفة، وسكة تضرب باسمه أيضًا، ومال يرسل إليه سنويًا. وفى سنة ٣٣١هـ أخذ الإخشيد البيعة على المصريين وجميع القواد والجند لابنه أبى القاسم أنوجور. وكانت الخلافة العباسية وقتذاك قد ضعف ضعفًا شديدًا، وانفصل كثير من الولاة بالأطراف واستقلوا بها، وكان أقوى هؤلاء الولاة وأحسنهم علاقة بالخلافة العباسية محمد بن طغج الإخشيد، فنجد أن الجفاء يشتد فى سنة ٣٣٢هـ بين الخليفة المتقى وبين الحمدانيين حكام الموصل من ناحية، وبينه وبين قائديه توزون والبريدى من ناحية أخرى. فكتب الخليفة إلى الإخشيد يستنجد به ويستدعيه إليه، ثم خرج للقائه فى الشام.

وغادر الإخشيد مصر بعد أن استخلف عليها أخاه الحسن بن طغج، وسار حتى التقى بالخليفة فى مدينة الرقة، وأهدى إليه تحفًا وهدايًا وأموالاً، وكان الخليفة عندما اشتد الخلاف بينه وبين الحمدانيين أرسل إلى توزون مستنجدًا أيضًا، فلما تقابل الإخشيد مع الخليفة قال

---

(١) الكندى: ص ٢٤٨.

له: «يا أمير المؤمنين: أنا عبدك وابن عبدك، وقد عرفت الأتراك وغدرهم وفجورهم. فـالله فـى نفسك، سر معى إلى الشام ومصر فهى لك، ونأمن على نفسك، فلم يقبل المتقى ذلـك، فقـال لـه الأخشيد. فأقم هنا وأنا أمدك بالأموال والرجال، فلم يقبل منه أيضًا»[1].

وعاد الإخشيد إلى مصر، غير أنه لم يلبث أن وصلته الأخبار أن توزون ثار بالخليفـة وخلعـه وسمل عينيه، وولى الخلافة من بعده المستكفى سنة ٣٣٣ هـ، ويقال إن الخليفة القـاهر - وكـان قد خلع وسملت عيناه - عندما علم بما حدث للمتقى قال: «صرنا اثنين ونحتاج إلى ثالث»[2] - يعرض بالمستكفى الخليفة الجديد - ، وقد صدقت نبوءته فعلاً.

وهكذا فشلت أيضًا المحاولة الثانية لنقل الخلافة العباسية إلى مصر.

---

(١) أبو المحاسن ٣/ ٢٥٥، انظر أيضًا: منز ١/ ٢١.

(٢) أبو المحاسن ٣/ ٢٨٢.

نظم الحكم ودواوينه فى الفسطاط

١ - نظام الإمارة

كان العرب يحيون فى بلادهم حياة قبلية، فلما فتحوا البلدان المجاورة - ومنها مصر - وجدوا بها حضارة ونظمًا للحكم معقدة، فتركوا هذه النظم على ما كانت عليه، وقنعوا بالرئاسة الحربية والدينية أول الأمر.

ثم لم يلبث العرب بعد اختلاطهم بسكان هذه البلدان، وبعد انتشار الدين الإسلامى واللغة العربية، أن تقبلوا هذه النظم، وتولوا هم جميع أمور هذه الدولة.

وقد تولى أمور الحكم فى هذه الولايات القواد الذين افتتحوا، ثم خلفهم بعد ذلك أمراء أو ولاة آخرون، وبذلك كان أول وال على مصر هو عمرو بن العاص، وكان عمرو حاكمًا قديرًا وإداريًا ماهرًا، كما كان قائدًا شجاعًا فذًا، ومن آثاره الهامة فى مصر مدينة الفسطاط، وجامعه الذى بناه بها، وتجديده للترعة القديمة التى كانت تصل النيل ببحر القلزم وسماها خليج أمير المؤمنين، كذلك عنى عمرو بإصلاح وسائل الرى فى مصر، وكانت قد أهملت وأصابها الفساد فى آخر عهد البيزنطيين، «ويقال إن عمرو بن العاص كان يسخر أكثر من مائة ألف عامل فى كرى الخلجان والترع وتطهيرها»[1].

وكان الأمير أو الوالى أو العامل على مصر يولى من قبل الخليفة على صلاتها وخراجها[2] وكانت تجتمع له - فى أول الأمر - السلطات كلها، فهو قائد الجند، وهو الإمام الذى يؤم الناس فى الصلاة، وهو المشرف على شئون مصر المالية وجامع خراجها، وهو القاضى الذى يفصل فى الخصومات: وقد بحث الفقهاء والمؤرخون نظام الإمارة أو الولاية فيما بعد، وقننوا له مواد، وقسموه إلى إمارة عامة وإمارة خاصة، ثم جعلوا الإمارة العامة قسمين: إمارة عن اختيار، وإمارة عن اضطرار.

وقد وضح الماوردى اختصاص الإمارة عن اختيار فى سبع مواد هى:

١ - النظر فى تدبير الجيوش، وترتيب النواحى، وتقدير أرزاقهم.

---

(١) مصر الإسلامية فى العصور الوسطى لإسماعيل أبو العينين، مقال من كتاب فى مصر الإسلامية، مطبعة المقتطف سنة ١٩٣٧م، ص ٩.

(٢) كان اصطلاح العصر دائما أن يقال عند الكلام عن الولاة ولى على مصر: صلاتها وخراجها، وقد ورد فى الكندى، ص ٣٠١، هامش ٢ نقلا عن ابن زولاق: «وولى عمرو بن العاص: حربها وخراجها»، وهى المرة الوحيدة التى قرأت فيها هذا الاصطلاح فيما أذكر.

٢ - النظر فى الأحكام وتقليد القضاة والحكام.

٣ - جباية الخراج، وقبض الصدقات، وتقليد العمال فيهما، وتفريق ما استحق منهما.

٤ - حماية الدين، والذب عن الحريم، ومراعاة الدين من تغيير وتبديل.

٥ - إقامة الحدود فى الله وحقوق الآدميين.

٦ - الإمامة فى الجمع والجماعات حتى يؤم بها أو يستخلف عليها.

٧ - تسيير الحجيج من عمله.

فإن كان هذا الإقليم ثغرًا متاخمًا للعدو اقترن بها ثامن، وهو جهاد من يليه من الأعداء، وقسم غنائمهم فى المقاتلة، وأخذ خمسها لأهل الخمس[١].

أما الأمير فى الإمارة الخاصة فيكون «مقصور الإمارة على تدبير الجيش وسياسة الرعية، وحماية البيعة والذب عن الحريم، وليس له أن يتعرض للقضاء والأحكام ولجباية الخراج والصدقات».

وهكذا نلاحظ أن ولاية عمرو لمصر كانت فى السنين الأولى ولاية عامة، فكانت بيده السلطات جميعًا، غير أن عمر لم يلبث أن عين عبد الله بن سعد بن أبى السرح على خراج مصر، فأصبحت ولاية عمرو ولاية خاصة، وبعد قليل أيضًا عين الخليفة قاضيا للحكم بين الناس، فلم يبق للوالى على مصر غير قيادة الجيش وإمامة الصلاة، والإشراف على الشرطة.

وكان الولاة على مصر منذ الفتح حتى بدأ العهد الطولونى يلون على مصر صلاتها وخراجها. وبذلك تكون السلطة كلها فى أيديهم، يتمتعون بنفوذ كبير واسع المدى. أو يلى الوالى على صلاتها فقط، وإلى جانبه وال آخر على خراجها، فينشأ بذلك النزاع[٢] وتقوم المنافسة بين الرجلين وقد يكون هذا هو السبب فى قصر مدة الولاة وعمال الخراج فى هذه المدة.

وكانت الصلاة أبرز أعمال الوالى وأهمها لاتصالها برسالة الإسلام التى ترمى إلى نشر هذا الدين الجديد، وكان أهم واجبات الوالى أن يؤم الناس فى الجمع وفى الصلوات الجامعة، وأن يستخلف الأئمة ليأموا الناس فى المساجد الجامعة الأخرى عندما انتشر الإسلام فى مصر وكثر عدد المسلمين، وقد ظل الولاة فى مصر يأمون الناس فى الصلاة فى عهود الخلفاء الراشدين والأمويين، وفى الصدر الأول من الدولة العباسية[٣] حتى ولى مصر ولاة من غير العرب لا يجيدون العربية، فأنابوا عنهم أئمة للصلاة بالناس، وقد ولى مصر ولاة من العرب كان آخرهم

---

(١) الأحكام السلطانية، ص ٢٨ - ٢٩.

(٢) انظر مثلا للنزاع بين الوالى وصاحب الخراج فى الكندى، ص ٧٥.

(٣) حسن إبراهيم حسن، النظم الإسلامية، ص ٢٠٨.

الباب السادس
نظم الحكم ودواوينه فى الفسطاط

١ - نظام الإمارة
٢ - دور الإمارة فى مصر (الفسطاط)

عنبسة بن إسحاق (٢٣٨هـ - ٢٤١ هـ) من قبل الخليفة المنتصر، ثم ولى مصر بعد ذلك ولاة من الأتراك كانوا كلهم جفاة غلاظًا ساء حال البلاد فى عهدهم. وكثرت الفتن وانتشرت الفوضى، حتى ولى مصر أحمد بن طولون فاستقل بأمورها، وأنقذها من هذا الخلل والاضطراب.

وكان والى الصلاة هو الذى يولى صاحب الشرطة[١] من قبله، كما كان يحدث أحيانًا أن يحتفظ الوالى بالشرطة لنفسه، كما فعل عبد الله بن عبد الرحمن بن حديج (١٥٢هـ - ١٥٥ هـ) عندما ولى من قبل أبى جعفر المنصور، فإنه لم يول على الشرطة أحدًا[٢].

كذلك كان الوالى إذا خرج لمقر الخلافة، أو للحج، أو إلى ثغر من ثغور الساحل، كالإسكندرية ودمياط ورشيد، استخلف على مصر، أو على العاصمة - الفسطاط - نائبًا عنه[٣].

وكان يحدث أحيانًا عند وفاة خليفة وتولية آخر أن يخرج وإلى مصر أو وفد منها لمبايعة الخليفة الجديد بالنيابة عن أهل مصر، كما خرج عبد الملك بن رفاعة والى مصر فى سنة ٩٦ هـ لمبايعة الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك[٤]، وكما خرج وفد من عرب مصر فى سنة ١٢٦ هـ لمبايعة الخليفة يزيد بن الوليد[٥]، كذلك أرسل صالح بن على -- والى مصر - وفدًا من أهلها فى سنة ١٣٣ هـ لمبايعة الخليفة العباسى الأول أبى العباس السفاح[٦].

وكان ينتقل والى مصر فى بعض الأوقات ليلى إفريقية، كما حدث فى عهد الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك، إذ أرسل والى مصر حنظلة بن صفوان (فى ولايته الثانية: ١١٩هـ - ١٢٤ هـ) كتابًا بتوليته على أفريقية «وأمره بالمسير إليها، وأن يستخلف على مصر، فاستخلف حفص بن الوليد الحضرمى»[٧] وقد أقر هشام حفصًا على ولايته.

وبعد أن انتصر صالح بن على العباسى على مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية وقتله، أتاه خطاب أبى العباس السفاح بتوليته على مصر[٨]، وفلسطين وأفريقية جميعا، ثم أتاه

---

(١) انظر أوائل الكلام عن الولاة جميعا فى الكندى وخاصة ص ٨٥ - ٩٣.

(٢) الكندى، ص ١١٧ - ١١٨.

(٣) كان إذا خرج عن مصر استخلف على مصر كلها، وإذا خرج إلى أحد الثغور استخلف على العاصمة، أو على شرطة الفسطاط، أو على الجند. انظر الكندى ص: ٦٤ و ٦٥ و ٧١ و ٧٤ و ٩٣ و ١٠١ و ١١٨ و ١٢١، وحدث مرة واحدة أن استخلف الوالى خلفين: أحدهما على الجند، والثانى على الخراج، انظر الكندى، ص١٠٨.

(٤) الكندى، ص ٦٦.

(٥) الكندى، ص ٨٤.

(٦) الكندى، ص ٩٧.

(٧) الكندى، ص ٨٢.

(٨) الكندى، ص ١٠٠ - ١٠٢.

خطاب آخر بأن يسير إلى فلسطين ليلى أمورها وأن يستخلف على مصر، فاستخلف عليها أباعون عبد الملك بن يزيد في مستهل شعبان سنة ١٣٣ هـ.

وفي سنة ١٤٨ هـ ضم يزيد بن حاتم - والي مصر من قبل أبي جعفر المنصور - برقة إلى مصر، «وهو أول من ضمها إليه، وأقر عليها عبد السلام بن عبد الله بن هبيرة الشيباني»[1].

وكان الوالي على مصر يعين من قبله واليين: أحدهما على الصعيد، والثاني على أسفل الأرض[2].

---

(١) الكندي، ص ١١٦

(٢) الكندي، ص ٨٤.

٢ - دور الإمارة فى مصر (الفسطاط)

لم يكن لأمراء مصر فى العهد الأول دار خاصة للإمارة، بل بنى عمرو بن العاص داره الكبرى فى الفسطاط شرقى المسجد الجامع، وفيها كان سكنه، وكانت تلاصقها دار عمرو الصغرى سكن ابنه عبد الله، وهكذا كان ينزل كل أمير يلى مصر دارا خاصة به يكون فيها سكنه ومقر حكمه، وإن كان ابن دقماق يذكر أن معاوية كان قد بنى قبلى المسجد الجامع فى الفسطاط دارًا لابنه يزيد اسماها «دار الرمل»، «وكانت الولاة تنزلها»[١].

فلما كانت فتنة ابن الزبير، ودخل مروان بن الحكم مصر فى سنة ٦٥ هـ أمر ببناء دار خاصة له فى الفسطاط، فبنيت فى شهرين، ويقال فى أربعين يومًا، وسماها «الدار البيضاء»[٢].

وفى سنة ٦٧ هـ بنى عبد العزيز بن مروان - والى مصر من قبل أخيه عبد الملك بن مروان دارًا عظيمة وسماها «دار الذهب»، وجعل لها قبة مذهبة «إذا طلعت عليها الشمس لا يستطيع الناظر التأمل فيها خوفًا على بصره، وكانت تعرف بالمدينة لسعتها وعظمتها»[٣]، وسكن هذه الدار عبد العزيز، ثم سكنها بنوه من بعده، حتى أتى إلى مصر مروان بن محمد فنزلها، فلما اشتد به الخطر أمر بإحراقها، فلامه فى ذلك بعض رجاله، فقال: «إن أبق ابنها لبنة من ذهب ولبنة من فضة، وإلا فما تصاب به فى نفسك أعظم . . .»[٤].

وعندما أنشأ صالح بن على مدينة العسكر بنى فيها دارًا خاصة سماها «دار الإمارة»، وظل ولاة مصر - من قبل العباسيين - ينزلونها حتى نزلها أحمد بن طولون[٥]. فلما بنى مدينة القطائع أنشأ فيها دار إمارة جديدة فى الجهة القبلية من مسجده الجامع، وكان لها باب يصلها بالمسجد عند المقصورة بجوار المحراب والمنبر، وظلت هذه الدار قائمة[٦] يسكنها

---

(١) ابن دقماق: ٤/ ٥.

(٢) الكندى، ص ٤٥.

(٣) صبح الأعشى ٣/ ٣٣١.

(٤) الكندى، ص ٩٥، وصبح الأعشى ٣/ ٣٣١.

(٥) ابن دقماق ٤/ ١٠.

(٦) يقول صاحب صبح الأعشى ٣/ ٣٣٢ إن محمد بن سليمان خرب هذه الدار كما خرب القطائع كلها، ولكن المقريزى يقول فى الخطط ٤/ ٤٢ إن هذه الدار ظلت باقية حتى أتى المعز الفاطمى فجعلها ديوانًا للخراج «فكان يستخرج فيها أموال الخراج».

بنو طولون إلى أن أتى محمد بن سليمان إلى مصر سنة ٢٩٢ هـ، وقضى على دولة الطولونيين، وخرب القطائع، فنزل فى الفسطاط فى دار كانت تسمى «الدار العظمى»[١]، وظلت هذه الدار سكنًا لولاة مصر من بعده، إلى أن ولى محمد بن طغج الإخشيد فنزلها، ثم ضاقت عليه «فزاد فيها وعظمها، وعمل لها ميدانًا، وجعل له بابًا من حديد، وذلك فى سنة ٣٣١هـ»[٢]، ولبثت مقرًا لولاة مصر طول عهد الإخشيديين حتى أتى الفاطميون فسكنوا فى القصر الكبير فى القاهرة.

(١) بقيت هذه الدار عند المصلى القديم بدر الخفيفى غلام أحمد بن طولون، ثم سكنها بعده طاهر بن خمارويه، ومن بعده حمامى غلام أحمد بن طولون، انظر ابن دقماق ٤/ ١٠، وصبح الأعشى ٣/ ٣٣٢.

(٢) صبح الأعشى ٣/ ٣٣٢.